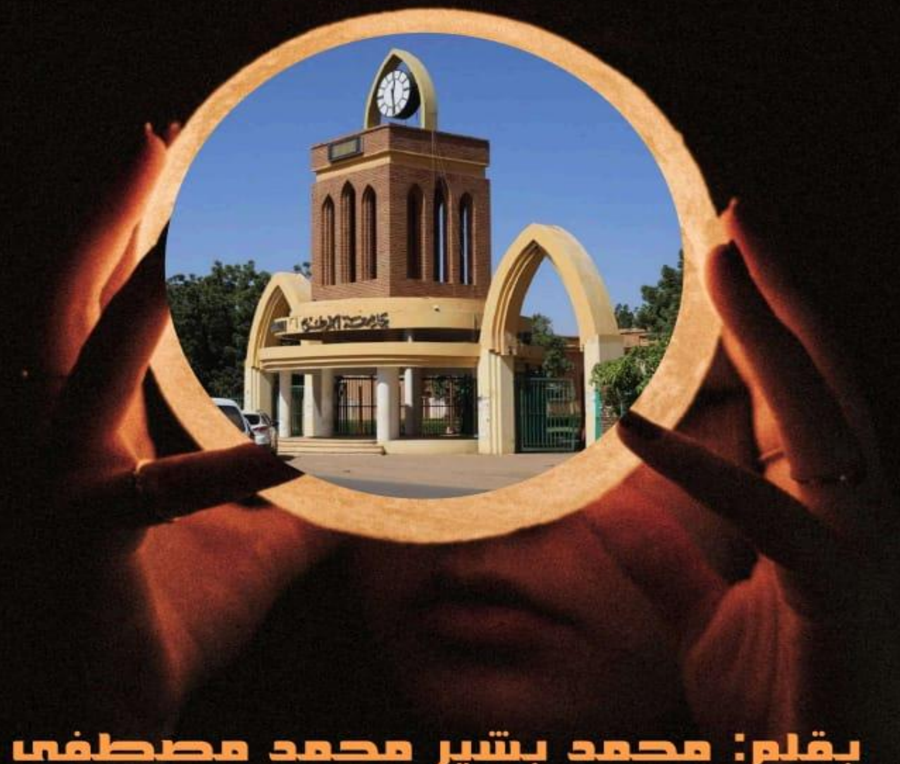
شتيلة ريد في جامعة الخرطوم

رواية عن الصداقة والحنين وذاكرة شارع النيل



بقلم: محمد بشير محمد مصطفى

"ود القبائل"

الفهرس:

الصداقة العميقة، والحنين للقرية، والأسرار التي لا يعرفها إلا الرفيق الحقيقي.

ما تبقّى من شتيلة الريد

الكلمة الأخيرة.

الإهداء

إلى كل صديقٍ جاء في العمر صدفة، ثم صار وطناً صغيراً لا تغادره الذاكرة.

إلى جامعة الخرطوم، تلك الأم العتيقة التي لم تكن تمنحنا الشهادات وحدها، بل كانت تصنع منا رجالاً بالبرد والجوع والضحك والكتب والمواقف.

وإلى موسى أحمد محمد النور دبال، رفيق الليالي الحالكة، وصاحب الشنب الكبير، ورفيق أدروب وشارع النيل.

المقدمة

ليست كل الروايات تبدأ من قصرٍ عظيم، أو مدينة بعيدة، أو حادثة تهز العالم.

بعض الروايات تبدأ من صحن فتة فول، ومن كباية شاي في كافتيريا أدروب، ومن برد داخلية قاسٍ، ومن صديق يقاسمك اللقمة والضحكة والسر والحلم.

هذه الحكاية لم تولد في الخيال وحده، بل خرجت من ذاكرةٍ مشبعة برائحة جامعة الخرطوم، وبصوت الطلاب في مجمع الوسط، وبخطواتٍ طويلة على شارعِ النيل، وبأحاديثٍ لا تنتهي عن المستقبل والحب والوطن والوجع.

في تلك السنوات، لم نكن نملك شيئاً كثيراً، لكننا كنا نملك ما هو أثمن من المال: كنا نملك الرفقة. والرفقة، حين تكون صادقة، تصير مثل شتيلة ريد؛ تبدأ صغيرة، خضراء، بريئة، ثم تكبر في القلب حتى تصبح ظلاً لا يزول.

الفصل الأول: من عجان إلى الجامعة

لم أكن أعرف يوم غادرتُ قرية عجان أنني لا أسافر إلى الخرطوم وحدها، بل أسافر إلى نسخة أخرى من نفسي. كنت أحمل حقيبةً بسيطة، وبعض الملابس، ووصايا الأهل، وقلق طالبٍ جاء من القرية إلى الجامعة العريقة، يظن أن أبواب المستقبل ستفتح له بمجرد أن يعبر بوابة جامعة الخرطوم.

كانت عجان خلفي، لكنها لم تفارقني. كانت في صوت أمي، في رائحة الطين، في سلام الرجال عند الصباح، في وجوه الأطفال الذين يركضون حفاةً خلف الحياة، وفي تلك البساطة التي لا يعرف قيمتها إلا من غادرها.

وصلت الخرطوم وأنا أحمل في داخلي رهبة كبيرة. المدينة واسعة، صاخبة، لا تشبه هدوء القرية. السيارات تمضي مسرعة، الناس في استعجال دائم، والوجوه كثيرة حتى تكاد تضيع بينها ملامحك. أما جامعة الخرطوم فكانت عالماً آخر؛

مبانٍ قديمة، أشجار باسقة، قاعات لها هيبة، وطلاب يمشون كأن كل واحد منهم يحمل مشروع وطن في يده.

في الأيام الأولى، كنت أراقب كل شيء بصمت. أراقب الطلاب، المحاضرات، الكافتيريات، المكتبات، والممرات الطويلة. كنت أشعر أنني دخلت إلى كتاب كبير، وأن عليّ أن أتعلم كيف أقرأ صفحاته واحدةً واحدة.

وهناك، في ذلك العالم الواسع، التقيت موسى أحمد محمد النور دبال.

لم يكن موسى شخصاً يمر دون أن تلتفت إليه. كان له حضور واضح، وملامح ريفية صلبة، وشنب كبير إذا رأيته من بعيد ظننته من تجار الأنعام لا من طلاب الجامعة. كان شنبه وحده يكفي ليصنع له شخصية مستقلة داخل الجامعة. كنا نقول له مازحين:

"يا موسى، شنبك دا محتاج بطاقة جامعية براهو".

فيضحك ضحكته العريضة، ويمسح على شنبه بكبرياء، ثم يقول:

"الشنب دا تاريخ يا زول، ما لعب".

كان موسى من قرية عراق، ريفي العزازي. وأنا من عجان. قريتان بعيدتان في الجغرافيا، قريبتان في الروح. جمعنا الريف قبل أن تجمعنا الجامعة. كنا نفهم بعضنا من النظرة الأولى؛ نفهم معنى البساطة، ومعنى الغربة، ومعنى أن تأتي من قرية تحمل أهلها في قلبك وتحاول أن تثبت للعالم أنك لست أقل من أحد.

بدأت علاقتنا عادية، سلامٌ في الممر، حديثٌ قصير بعد محاضرة، ضحكة عابرة في كافتيريا. لكن بعض الأرواح لا تحتاج زمناً طويلاً لتتعارف. كأننا كنا صديقين قديمين، وتأخر اللقاء فقط حتى جاءت الجامعة لتجمعنا.

مع الأيام صار موسى أقرب الناس إليّ. كنا نأكل معاً، نشرب معاً، نمشي معاً، ونتسامر في الليالي الحالكة حين ينام الناس وتستيقظ الذاكرة. عرف تفاصيل حياتي، وعرفت تفاصيل حياته. صار يعرف متى أضحك وأنا حزين، ومتى أصمت لأن الكلام لا يكفي، ومتى أحتاج إلى رفيق يجلس بجواري دون أن يسألني عن السبب.

كانت الصداقة بيننا تكبر بهدوء، مثل شتيلة ريد نبتت في قلب جامعة الخرطوم. لم نسقها بالكلام الكثير، بل سقيناها بالمواقف، بالجوع، بالبرد، بالمشي الطويل، وبكبايات الشاي التي كنا نحتسيها كأنها علاج لأمراض العمر.

في مجمع الوسط، كانت كافتيريا أدروب مملكتنا الصغيرة. هناك كنا نجلس كأننا نملك الدنيا. نطلب الشاي، ونضرب فتة الفول، ونبدأ في تحليل الحياة من أولها إلى آخرها. كنا نناقش الحب والسياسة والدراسة والمستقبل، ثم نعود في النهاية إلى نفس السؤال:

"بعد دا كلو، حنلقى شغل؟"

فيضحك موسى ويقول:

"يا زول، خليها على الله. المهم الليلة نلقى حق العشاء".

كان موسى يجيد تحويل القلق إلى ضحك. وهذه موهبة نادرة. كان يعرف كيف ينتزع النكتة من قلب التعب، وكيف يجعل الجوع أقل قسوة، والبرد أقل وحشة، والجامعة أقل رهبة.

أما برد الداخلية، فذلك باب آخر من الحكاية. كان برداً غارصاً، يدخل في العظام كأنه يعرف طريقه جيداً. كنا نتحمله بالبطاطين القديمة، وبالشاي، وبالحكايات الطويلة. أحياناً نضحك من شدة البرد، لا لأن الأمر مضحك، بل لأن الضحك كان وسيلتنا الوحيدة للنجاة.

وفي بعض الليالي، حين تضيق بنا الغرفة، نخرج إلى شارع النيل. هناك، عند توحة، كنا نحتسي الشاي ونترك النيل يفعل ما يفعله دائماً: يسمع ولا يتكلم، يحفظ الأسرار ولا يفضح أحداً.

كان شارع النيل بالنسبة إلينا أكثر من شارع. كان مساحة للبوح. نمشي فيه ونحن نحمل أحلاماً أكبر من جيوبنا، وأماني أكبر من أعمارنا. كنا نتحدث عن كل شيء: عن القرى، عن الأهل، عن البنات، عن الشعر، عن الوطن، وعن تلك الحياة التي تنتظرنا بعد الجامعة كأنها امتحان كبير لم نذاكر له بعد.

قال لي موسى ذات ليلة ونحن ننظر إلى النيل:

"يا محمد، الجامعة دي بتعلمك الحاجة البرا المقرر أكتر من الجوا المقرر".

سألته:

"كيف يعني؟"

قال:

"بتعلمك تعرف الناس. تعرف صاحبك من زول ساكت. تعرف الجوع. تعرف الصبر. تعرف إنو الزول ممكن يكون ما عندو قروش، لكن عندو كرامة تكفي بلد كامل".

سكتُّ لحظة. كان كلامه بسيطاً، لكنه دخل قلبي. موسى لم يكن فيلسوفاً بالمعنى المعروف، لكنه كان يملك حكمة الناس الذين ربّتهم الحياة قبل الكتب.

تلك الليلة، شعرت أنني لم أجد صديقاً فقط، بل وجدت شاهداً على أيامي. والإنسان يحتاج في حياته إلى شاهدٍ صادق؛ شخص يعرف الحكاية من أولها، لا يصدق النسخ المزيفة عنك، ولا يحتاج أن تشرح له نفسك كل مرة.

وموسى كان ذلك الشاهد.

كان يعرفني كما أنا؛ ابن عجان الذي جاء إلى جامعة الخرطوم يحمل حلماً كبيراً وخوفاً خفياً. وكنت أعرفه كما هو؛ ابن عراق، صاحب الشنب الكبير، والرجل الذي يخفي رقة قلبه خلف النكات والصلابة.

هكذا بدأت الحكاية.

لم تبدأ بضجة، ولا بوعد كبير، ولا بقسمٍ تحت ضوء القمر. بدأت ببساطة، كما تبدأ الأشياء الصادقة دائماً: سلام، ضحكة، صحن فول، كباية شاي، وبرد داخلية جمع بين قلبين.

ومن هناك، من جامعة الخرطوم، بدأت شتيلة الريد تكبر.

الفصل الثاني : كافتيريا أدروب... مملكة الجوع والضحك

كانت جامعة الخرطوم في النهار تشبه دولةً كاملة داخل دولة. لكل كليةٍ لغتها، ولكل ركنٍ أهله، ولكل شجرةٍ حكاية طلاب جلسوا تحتها ثم مضوا وتركوا أسماءهم في الذاكرة. لكن في المساء، حين تهدأ القاعات وتخف حركة الأساتذة، كانت الجامعة تكشف وجهها الآخر؛ وجه الطلاب الحقيقيين، أولئك الذين لا يظهرون في كشوفات الامتحانات ولا في صور التخرج، بل يظهرون في طوابير الشاي، وفي ضحكات الكافتيريات، وفي سهر الداخليات.

وكانت كافتيريا أدروب واحدة من تلك الأمكنة التي لا تُذكر جامعة الخرطوم دون أن تمرّ على القلب مثل رائحة شاي بالحليب في مساء بارد.

لم تكن أدروب مجرد كافتيريا. كانت برلماناً شعبياً، ومسرحاً مفتوحاً، ومحكمةً للقلوب، ومأوى للجائعين، ومكتباً غير رسمي لتصحيح مسار الأحلام. هناك

يجلس الطالب الذي لم يجد حق المواصلات بجوار آخر يحلم بمنحة خارج السودان، وهناك يتجادل السياسي مع العاشق، والشاعر مع لاعب الكرة، وابن الريف مع ابن المدينة، وكلهم في النهاية ينتظرون كباية شاي أو صحن فول.

كنت أنا وموسى نصل أدروب كأننا نعود إلى بيتٍ نعرف طريقه ولو أغمضنا أعيننا.

كان موسى يدخل المكان بطريقته المعروفة؛ صدره مرفوع، شنبه ظاهر كأنه إعلان رسمي عن حضوره، وعيناه تبحثان بسرعة عن طاولة فارغة. وحين يجد مكاناً، يجلس بثقة رجلٍ حجز مقعده في الدنيا كلها، لا في كافتيريا مزدحمة فقط.

يقول لي:

"يا محمد، الليلة الوضع محتاج فتة محترمة".

أقول له وأنا أفتش في جيبي:

"فتة محترمة؟ القروش البتتكلم عنها دي وين؟"

فيضحك ويقول:

"يا زول، الرزق على الله. نحن علينا النية".

كانت النية عند موسى أحياناً تقوم مقام الميزانية. كان يؤمن أن الجوع لا يُهزم بالمال وحده، بل بالرفقة وبالضحك وبقليل من الشاي الثقيل. فإذا اجتمعنا حول صحن فتة فول، ننسى أننا كنا قبل دقائق نحسب القروش المعدنية كأنها أرقام في ميزانية دولة.

نطلب الفتة، فيأتي الصحن كأنه هدية من السماء. خبز ممزوج بالفول والزيت والشطة، وأحياناً طعمية إذا تكرّم الزمن، أو قطعة جبنة لو كان اليوم من أيام الرفاهية الطلابية النادرة. نجلس حوله بجدية رجالٍ أمام وثيقة تاريخية. لا أحد يبدأ قبل أن يجهز الجميع. ثم تمتد الأيادي، وتبدأ المعركة.

كان موسى يأكل بطريقة تجعل الفول يحترمه.

يمسك اللقمة، يضبط اتجاهها، يغمسها في المكان الصحيح، ثم يرفعها إلى فمه كأنه يصوّب هدفاً في مرمى الحياة. وكنت أقول له مازحاً:

"يا موسى، إنت لو دخلت المنتخب كان جبت الكاس. تصويبك في الفول دا ما عادي".

فيرد وهو لا يرفع عينه من الصحن:

"يا زول دي مهارة ريفية. نحن ناس الحواشات ما بنضيع الهدف".

ومن هنا جاءت بيننا عبارة "تصويب الأهداف". لم تكن تعني الكرة وحدها، بل كانت تعني كل محاولة في الحياة؛ محاولة النجاح، محاولة الحب، محاولة النجاة من الرسوب، محاولة الوصول إلى آخر الشهر بكرامة، ومحاولة أن نظل نضحك رغم كل شيء.

في أدروب كنا نصوّب أهدافنا الصغيرة والكبيرة. أحياناً نخطط للدراسة بجدية عظيمة، ثم يمر صديق فيجرنا إلى حديث طويل عن السياسة. وأحياناً نقرر أن ننام مبكراً، ثم نجد أنفسنا بعد منتصف الليل في شارع النيل نشرب الشاي عند توحة. وأحياناً نتحدث عن المستقبل كأننا قبضنا عليه، ثم نكتشف في الصباح أننا لا نملك حتى حق الفطور.

لكن تلك كانت حلاوة الزمن. أن تكون فقيراً، لكنك لا تشعر بالهزيمة. أن تكون خائفاً من الغد، لكن لك صديقاً يجعل الخوف قابلاً للضحك. أن تحمل في جيبك القليل، وفي قلبك الكثير.

كان موسى يحكي عن قريته عراق، ريفي العزازي، بحب واضح. حين يذكرها، يتغير صوته. يصبح أكثر هدوءاً، كأن القرية تجلس أمامه. يصف الطرقات، البيوت، الناس، مواسم المطر، جلسات الرجال، وملامح الأمهات عند الوداع. وكنت أنا أحدثه عن عجان، عن الوجوه التي لا تغادر الذاكرة، عن الأرض، عن الطفولة، عن تلك التفاصيل الصغيرة التي لا يفهمها إلا من خرج من قرية وهو يظن أنه تركها خلفه، ثم اكتشف أنها تسكنه.

كان بين عجان وعراق خيط خفي. لم تكن القريتان متجاورتين، لكنهما كانتا تلتقيان داخلنا. نحن أبناء الريف الذين جاءت بهم الجامعة إلى قلب الخرطوم، فصرنا نمشي بين المباني العتيقة ونحن نحمل في داخلنا غبار الطرق، ورائحة الطين، وأصوات الأهل.

قال لي موسى ذات مساء ونحن في أدروب:

"يا محمد، نحن أولاد قرى، لكن الجامعة دي ما حتبلعنا".

قلت له:

"وليه تبلعنا؟"

قال:

"في ناس لمن يجوا المدينة بتتغير ملامحهم. ينسوا أهلهم، ينسوا كلامهم، ينسوا حتى طريقة ضحكتهم".

قلت له:

"وإنت خايف تتغير؟"

مسح على شنبه وقال:

"أنا؟ الشنب دا ضمان ضد التغيير".

ضحكت حتى كدت أشرق بالشاي. كان موسى يعرف كيف يهرب من العمق بالنكتة، لكنه كان في الحقيقة يقول كلاماً أكبر مما يبدو. كنا نخاف أن تغيّرنا المدينة. نخاف أن نصير غرباء عن القرى التي جاءت بنا. نخاف أن نفقد بساطتنا ونحن نطارد الشهادة والمستقبل.

لكن الجامعة لم تسرقنا من أنفسنا. على الأقل، لم تفعل ذلك بسرعة. كانت تعلّمنا وتختبرنا وتضغط علينا، لكنها كانت تترك فينا مساحة للحنين. وربما كان موسى هو تلك المساحة بالنسبة لي؛ كلما شعرت أن الخرطوم تكبر أكثر من اللازم، وجدته بجواري يضحك، فيعيدني إلى بساطة الأشياء.

كان لأدروب زبائن ثابتون، ووجوه تحفظها الذاكرة. هناك الطالب الذي يتحدث في السياسة كأنه رئيس حكومة في المنفى. وهناك الشاعر الذي يكتب قصائده على ظهر أوراق المحاضرات. وهناك العاشق الذي يطلب الشاي ولا يشربه، لأنه مشغول بمراقبة فتاة تمر من بعيد. وهناك من يأتي فقط ليجلس، لأن الوحدة في الكافتيريا أقل قسوة من الوحدة في الغرفة.

وموسى كان يعرف كيف يتعامل مع كل هؤلاء. يدخل في حديث، يخرج من آخر، يطلق تعليقاً، يضحك، يسأل عن الغائب، يواسي المهموم، ويحوّل الطاولة الصغيرة إلى مجلس كبير.

كان لديه قلب اجتماعي، وإن حاول أن يخفيه خلف الصرامة. لم يكن يترك صديقاً حزيناً دون أن يقترب منه. قد لا يسأله مباشرة: "مالك؟" لكنه يقول له: "تعال أشرب شاي".

وكانت هذه عند موسى جملة علاجية. فالشاي في فلسفته ليس مشروباً، بل طريقة لإنقاذ الناس من ثقل الكلام.

في إحدى الليالي، كنا نجلس في أدروب بعد يوم طويل من المحاضرات. كنت متعباً وصامتاً، أحاول أن أخفي ضيقاً لا أعرف له اسماً. نظر إليّ موسى طويلاً، ثم قال:

"يا محمد، الليلة وشك عامل زي ورقة امتحان ما محلولة".

قلت له:

"تعبان ساكت".

قال:

"التعب الساكت دا أخطر من التعب البتكلم".

لم أرد. ظل ينظر إليّ، ثم طلب كبايتين شاي دون أن يسألني. دفع الحساب من جيبه، رغم أنني كنت أعرف أن جيبه ليس أفضل حالاً من جيبي. وضع الكباية أمامي وقال:

"أشرب. بعدين لو داير تتكلم اتكلم، ولو ما داير، نخلي الشاي يتكلم".

تلك اللحظة الصغيرة بقيت معي. ليس لأنها حادثة كبيرة، بل لأنها كشفت جوهر الصداقة. الصديق الحقيقي لا يحتاج أن يحل كل مشاكلك. أحياناً يكفي أن يجلس بجانبك، ويطلب لك شاياً، ويترك لك حق الصمت.

شربنا الشاي في صمت. من حولنا كانت الأصوات عالية، والضحكات تتطاير، والملاعق تضرب الأكواب، لكن بيني وبين موسى كان هناك هدوء مختلف. هدوء من يعرف أنك لست بخير، لكنه لا يضغط عليك لتشرح ما لا تستطيع شرحه.

بعد قليل قال:

"عارف يا محمد، الجامعة دي زي الفول".

نظرت إليه مستغرباً:

"زي الفول كيف؟"

قال:

"لو أكلتو براهو ناشف، بتغص. لكن لو معاه زيت وشطة ولمة، بيمشي".

ضحكت رغم تعبي.

قال وهو يبتسم:

"نحن الزيت والشطة لبعض يا زول".

كانت عبارته مضحكة، لكنها كانت صادقة على طريقته. نحن فعلاً كنا نخفف قسوة الأيام عن بعضنا. لا نملك حلولاً عظيمة، لكننا نملك الحضور. والحضور، في زمن الطلاب، كان أكبر من أي مال.

مرت الأيام، وصارت أدروب جزءاً من جدولنا غير المكتوب. إن لم نجد بعضنا في القاعة، وجدنا بعضنا هناك. إن ضاقت الغرفة، ذهبنا إلى أدروب. إن جاع القلب أو البطن، ذهبنا إلى أدروب. وإن لم يكن لدينا سبب، اخترعنا سبباً.

كانت كافتيريا أدروب شاهدة على بداية شتيلة الريد. لم تكن شتيلة حب عابر، بل شتيلة مودة وصداقة ووفاء. نبتت بين صحون الفول وكبايات الشاي، تحت سقف بسيط، وسط ضجيج الطلاب ورائحة التعب.

ومع كل يوم، كانت تكبر.

تكبر في ضحكة موسى، وفي صمتي حين يفهمني، وفي مشاويرنا التي لا تنتهي، وفي تلك الجملة التي كان يرددها كلما اشتدت علينا الأيام:

"يا محمد، نحن ما جينا الجامعة دي عشان ننجح في الامتحانات بس... جينا عشان نعرف قيمة الناس".

وكان صادقاً.

ففي جامعة الخرطوم، تعلّمنا أن بعض الناس ليسوا زملاء دراسة فقط، بل قدر جميل. بعضهم يمر في حياتك كنسمة، وبعضهم يقيم فيك مثل وطن.

وموسى أحمد محمد النور دبال لم يكن زميلاً عابراً.

كان وطناً صغيراً، له شنب كبير، وضحكة واسعة، وقلب لا يعرف الخذلان

الفصل الثالث: برد الداخلية الغارص

لم تكن الداخلية سكناً للطلاب فقط، بل كانت مدرسةً أخرى خارج قاعات المحاضرات. هناك لا يسألك أحد عن معدلك الدراسي، ولا عن أناقة ملابسك، ولا عن عدد الكتب التي تحملها تحت إبطك. هناك تُعرف من طريقة احتمالِك للضيق، ومن قدرتك على مشاركة اللقمة، ومن صبرك على البرد، ومن أخلاقك حين تنطفئ الكهرباء، ويقلّ الماء، وتشتد الحاجة.

كانت الداخلية عالماً قائماً بذاته. غرف ضيقة، أسرّة حديدية، مراتب نحيفة كأنها اعتذرت مسبقاً عن أداء مهمتها، بطاطين قديمة، شنط معلقة في المسامير، أحذية عند الأبواب، ووجوه طلابية تحمل آثار النوم المتقطع، والجوع المؤجل، والأحلام الكبيرة.

في النهار، نبدو طلاب جامعة الخرطوم، نمشي بين القاعات والمكتبات والكافتيريات كأننا أبناء مؤسسة عريقة. أما في الليل، فنعود إلى الداخلية، فتسقط كل المظاهر. لا يبقى غير الإنسان كما هو: متعباً، جائعاً أحياناً، قلقاً، ومحتاجاً إلى كلمة طيبة.

وكان برد الداخلية شيئاً لا يُنسى.

لم يكن برداً عادياً. كان برداً غارصاً، يعرف طريقه إلى العظام، يدخل من فتحات الشبابيك، ومن فراغات الأبواب، ومن ثقوب البطاطين القديمة، حتى تشعر أن الليل كله صار قطعة ثلج موضوعة على صدرك.

كنا نلتف بالبطاطين ونضحك. نعم، نضحك. لأن الطالب حين لا يجد حلاً للبرد، يصنع منه نكتة. وكان موسى سيد النكات في تلك الليالي.

يقول وهو يرتجف:

"يا محمد، البرد دا لو دخل الامتحان معانا، بنسقط كلنا".

أرد عليه وأنا أدفن وجهي داخل البطانية:

"دا ما برد، دا زول عندو قضية شخصية معانا".

فيقول موسى:

"والله يا زول، لو لقاني مسؤول الداخلية بكرة بقول ليهو: يا أستاذ، نحن ما ساكنين، نحن مجمدين".

ثم يضحك، فنضحك معه، لا لأن البرد صار خفيفاً، بل لأن ضحك موسى كان يخلخل قسوته قليلاً.

كانت الغرفة تجمعنا كما تجمع السفينة ركابها في بحر متقلب. كل واحد جاء من مكان مختلف، يحمل قصة مختلفة، لكننا كنا نتشابه في التعب. في تلك الغرفة عرفت أن الفقر ليس عيباً، وأن الحاجة لا تكسر الإنسان إذا وجد من يشاركه احتمالها.

كنا نعلق الملابس في كل مكان. القمصان، الجلابيب، المناشف، البنطلونات التي غسلت ولم تجف، والأكياس التي تحتفظ بما تبقى من حياة القرية. وكان

موسى يملك طريقة غريبة في ترتيب أغراضه؛ يضع كل شيء في مكان يراه مناسباً، حتى لو كان ذلك المكان فوق كتابي أو تحت مخدتي.

أقول له:

"يا موسى، ده كتابي".

فيقول ببساطة:

"عارف. خليتو هناك عشان يكون في أمان".

أقول:

"في أمان تحت جزمتك؟"

يمسح على شنبه ويقول:

"العلم لازم يحتك بالواقع".

لم يكن ممكناً أن تغضب منه طويلاً. كان يملك قدرة عجيبة على تحويل المخالفة إلى حكمة، والفوضى إلى فلسفة، والاعتذار إلى ضحكة.

في إحدى الليالي، اشتد البرد حتى صرنا نسمع أسنان بعضنا وهي تصطك كأنها تصفق لخطبة مجهولة. لم يكن معنا ما يكفي من البطاطين. كانت بطانية موسى

أثقل قليلاً من بطانيتي، فلاحظ أنني أرتجف، لكنه لم يقل شيئاً. بعد قليل، تظاهر بأنه يريد القيام إلى الحمام، وحين عاد، ألقى بطانيته فوقي وقال:

"أمسك دي، أنا سخنت خلاص".

قلت له:

"كيف سخنت والبرد دا عامل فيك كدا؟"

قال:

"أنا من عراق يا زول. ناس عراق عندهم مناعة ضد البرد".

كنت أعرف أنه يكذب. كان يرتجف، لكنه لا يريدني أن أشعر بأنه منحني شيئاً. تلك كانت طريقة موسى في العطاء؛ يعطيك وكأنه لم يفعل، ويخفي طيبة قلبه خلف المزاح.

حاولت أن أعيد له البطانية، فرفض.

قال بلهجة حاسمة:

"يا محمد، ما تعمل فيها كريم. الليلة إنت الضيف في بطانيتي".

ضحكنا، وبقيت البطانية فوقي. تلك الليلة نمت قليلاً، لكنه ظل مستيقظاً زمناً أطول. سمعت حركته، وسمعت سعاله الخفيف، وسمعت صوت البرد وهو يتسلل إلينا، لكنني سمعت أيضاً صوت الصداقة وهي تكبر بصمت.

الصداقة لا تُقاس بالكلام الكبير. تُقاس ببطانية في ليلة باردة، بلقمة في وقت الجوعِ، بكباية شاي حين يثقل القلب، وبشخص يفهم ارتجافك قبل أن تطلب النجدة.

في الداخلية، تعلمنا كل ذلك.

تعلمنا أن الإنسان قد يكون فقيراً في الأشياء وغنياً بالمواقف. تعلمنا أن الغرفة الضيقة قد تتسع إذا امتلأت بالضحك. وتعلمنا أن الشباب ليس أجمل لأنه بلا تعب، بل لأنه قادر على تحويل التعب إلى حكاية.

كان موسى في الداخلية شخصية لا تشبه أحداً. إذا دخل الغرفة، دخلت معه الحركة. إن كان صامتاً عرفنا أن في الأمر شيئاً. أما إذا بدأ في الكلام، فاعلم أن الليل لن ينتهي قريباً.

كان يحكي لنا عن سوق القرية، عن الرجال الذين يعرفون الأنعام من نظرة واحدة، عن المزارعين الذين يقرؤون السماء كما نقرأ نحن الجريدة، وعن أمه التي كان يذكرها بصوت فيه خشوع لا يخلو من حنين.

وحين يذكر أمه، يسكت قليلاً. كانت تلك من المرات النادرة التي يترك فيها موسى النكتة جانباً. يحدق في السقف، ثم يقول:

"الأم دي يا محمد، لو دعت ليك من بعيد، بتحس الدعوة وصلت قبل الخطاب".

كنت أفهمه. أمه في عراق، وأمي في عجان، وبيننا وبينهما مسافات، لكن دعاء الأمهات كان يسافر أسرع من البصات، وأصدق من الرسائل، وأدفأ من كل بطاطين الداخلية.

كنا أحياناً نفتح الحديث عن الغربة داخل الوطن. نعم، كنا في السودان، لكن الخرطوم بالنسبة لأبناء القرى غربة من نوع آخر. غربة لا تحتاج إلى جواز سفر. يكفي أن تجد نفسك وسط ضجيج لا يعرف اسم أبيك، ومدينة لا تعرف طفولتك، وناس لا يميزون بين صمتك ووجعك.

قال لي موسى ذات مرة:

"الغربة ما شرط تكون خارج البلد. الغربة إنك تكون في مكان ما فيهو زول يقول ليك: مالك؟ بالطريقة البتعرفها".

قلت له:

"وأدروب؟ والداخلية؟"

ابتسم وقال:

"ديل خففوا الغربة. ما لغوها".

كان صادقاً. الجامعة لم تلغِ غربتنا، لكنها علمتنا كيف نؤنسها. وأحياناً كان الأنس كله في شخص واحد. شخص يجلس بجوارك في صمت، أو يوقظك لصلاة، أو يترك لك آخر لقمة في الصحن، أو يضحك معك على حال لا يحتمل الضحك.

في تلك الأيام، كنا نملك أحلاماً كبيرة لا تتناسب مع واقعنا البسيط. نحلم بالنجاح، بالعمل، بالسفر، بالكتابة، بالحب، وبأن نصير شيئاً يفرِح به أهلنا. كنا نرى المستقبل مثل شارعٍ طويل مضاء من بعيد، لكننا لم نكن نعرف كم حفرة بيننا وبينه.

وكان موسى، رغم مزاحه الدائم، يحمل داخله جدية عميقة. كان يريد أن ينجح. يريد أن يرد الجميل لأهله. يريد أن يثبت أن ابن عراق قادر على أن يرفع رأس قريته كما يرفع شنبه في وجه الدنيا.

أما أنا، فكنت أحمل قلق الكتابة مبكراً. كانت الكلمات تزورني في أوقات غير مناسبة: أثناء المحاضرة، في الطريق إلى أدروب، في برد الداخلية، وعلى شارع النيل. كنت أكتب في ذهني قبل أن أكتب على الورق. وموسى كان أول من ينتبه إلى شرودي.

يقول لي:

"يا محمد، إنت لمن تسكت كدا، معناها في قصيدة ولا مصيبة؟"

أقول له:

"يمكن الاتنين".

فيضحك:

"أها لو قصيدة ورينا، ولو مصيبة أخفيها لحدي ما نلقى شاي".

كان يشجعني بطريقته الخاصة. لم يقل لي يوماً: اكتب فأنت كاتب عظيم. لكنه كان يصغي حين أقرأ عليه شيئاً. وكان إصغاؤه أكبر من أي مدح. أحياناً يعلّق بجملة بسيطة لكنها تكفي:

"الكلام دا فيهو ريحة بلد".

وكانت تلك الجملة تسعدني أكثر من أي شهادة.

في إحدى الليالي، كتبت سطوراً عن القرية والجامعة. قرأتها عليه ونحن في الغرفة، والبرد يطرق الأبواب بلا رحمة. ظل ساكتاً حتى انتهيت. ثم قال:

"يا محمد، أكتب عن الحاجات البنعرفها. عن الفول. عن الشاي. عن ناس القرى. عن البرد دا. الناس البكتبوا عن القصور كتار، لكن منو البكتب عن بطانيتنا دي؟"

ضحكت أولاً، ثم بقيت الجملة في قلبي.

منو البكتب عن بطانيتنا دي؟

ربما لهذا أكتب الآن. لأن موسى، دون أن يدري، وضع يده على سر الرواية. ليس الأدب في الأشياء البعيدة وحدها. الأدب في صحن الفول إذا كان حوله

جائعون يضحكون. في كباية الشاي إذا حملت صمت صديق. في برد الداخلية إذا كشف دفء القلوب. في شنب موسى إذا صار علامة على زمن كامل.

مع مرور الأيام، صارت الداخلية جزءاً من ذاكرتنا المشتركة. إذا ذكرناها ضحكنا أولاً، ثم سكتنا قليلاً. فالأماكن التي تعذبنا في شبابنا تتحول لاحقاً إلى كنوز حنين. ننسى قسوتها الدقيقة، ونحتفظ بما تركته فينا من قوة.

لم تكن الداخلية فندقاً ولا بيتاً مريحاً، لكنها كانت المكان الذي اختبر صداقتنا. هناك عرفنا أننا لا نترافق في الضحك فقط، بل في الضيق أيضاً. وهناك اكتشفت أن موسى ليس صديق المشاوير الخفيفة وحدها، بل صديق الليالي الثقيلة.

وفي ليلة من تلك الليالي، بينما كان البرد يضغط على الغرفة، وكان معظم الطلاب نائمين، قال موسى بصوت منخفض:

"يا محمد، تتخيل بعد سنين نرجع نتذكر الليلة دي ونضحك؟"

قلت له:

"أكيد".

قال:

"ويمكن واحد فينا يكتبها".

قلت له وأنا أبتسم:

"ومن القال ليك ما حأكتبها؟"

نظر إليّ، ثم مسح على شنبه وقال:

"أكتب، لكن بالله أذكر إنو أنا كنت بتحمل البرد أكتر منك".

قلت له:

"دي كذبة كبيرة".

قال:

"الرواية محتاجة شوية خيال".

ضحكنا حتى استيقظ أحد الزملاء وصرخ فينا:

"يا جماعة خلونا ننوم"!

سكتنا قليلاً، ثم انفجر موسى ضاحكاً بصوت مكتوم. كان يحاول أن يكتم الضحك فيخرج من أنفه، فيرتج شنبه بطريقة مضحكة. وكلما رأيت شنبه يتحرك، ازددت ضحكاً. تلك كانت إحدى الليالي التي لم يحدث فيها شيء عظيم، لكنها بقيت عظيمة لأنها كانت لنا.

وفي الصباح، خرجنا إلى الجامعة بوجوه متعبة وعيون نصف مفتوحة، كأننا ناجون من معركة ليلية. مشينا نحو القاعات، ثم عرّجنا على أدروب. كان الشاي ضرورياً، ليس للاستيقاظ فقط، بل لإعلان أننا ما زلنا قادرين على مواصلة الحياة.

قال موسى وهو يحمل كباية الشاي:

"يا محمد، البرد دا ما بهزمنا. نحن ناس شتيلة ريد".

قلت له:

"شتيلة ريد ولا شتيلة برد؟"

قال:

"الاتنين. الريد لو ما اتحمل البرد ما ببقى ريد".

كانت الجملة عابرة، لكنها صارت معنى. فشتيلة الريد التي نبتت في جامعة الخرطوم لم تنبت في أرض سهلة. نبتت بين الجوع والبرد والضحك والقلق. لذلك صارت قوية. لذلك بقيت في الذاكرة.

ومنذ ذلك اليوم، كلما هبّ بردٌ مفاجئ، تذكرت الداخلية، وتذكرت موسى، وتذكرت بطانيته التي ألقاها فوقي وهو يرتجف، ثم ادعى أنه مناعة ضد البرد.

رحم الله تلك الأيام إن كانت قد مضت، وباركها إن كانت ما زالت تعيش فينا.

فبعض الليالي لا تنتهي حين يطلع الصباح.

بعض الليالي تتحول إلى فصل كامل في رواية العمر.

الفصل الرابع : شارع النيل وشاي توحة

كان شارع النيل في تلك السنوات أشبه بصفحة مفتوحة من كتاب الخرطوم. نمشي فيه فنشعر أن المدينة، بكل ضجيجها وتعبها وارتباكها، تخلع حذاءها قليلاً وتجلس على حافة الماء لتتنفس.

لم يكن شارع النيل مجرد طريقٍ تمر فيه السيارات، ولا مجرد مكانٍ يقصده الناس للهواء والفرجة. كان بالنسبة إلينا امتداداً للجامعة، وقاعةً أخرى بلا جدران، ومقهى واسعاً تحت السماء، ودفتر أسرار لا يكتبه أحد، لكنه يحفظ كل شيء.

كنا نخرج إليه حين يضيق بنا الحوش، أو تضيق الغرفة، أو تضيق الصدور بما لا تستطيع الكلمات حمله. نمشي أنا وموسى من ناحية الجامعة، تتبعنا ظلالنا الطويلة، وتسبقنا أحلامنا التي كانت أكبر من أعمارنا وأخف من جيوبنا.

كان موسى يقول دائماً:

"يا محمد، شارع النيل دا لو اتكلم، بفضح نص الجامعة".

وأرد عليه:

"ونص التاني؟"

فيضحك وهو يمسح على شنبه:

"النص التاني قاعد يشرب شاي عند توحة".

وكانت توحة اسماً لا يمر في الذاكرة مروراً عادياً. لم تكن مجرد بائعة شاي، بل كانت جزءاً من المشهد، مثل النيل، ومثل الكراسي البلاستيكية، ومثل صوت

الملاعق وهي تضرب الأكواب، ومثل البخار الطالع من الشاي في الليالي الباردة.

عند توحة، كنا نجلس كأننا وجدنا وطناً مؤقتاً. الكراسي بسيطة، التراب تحت الأقدام، النيل قريب، والهواء يحمل رائحة الماء والدخان والشاي والنعناع. وكان الشاي هناك مختلفاً؛ لا أدري هل كان الاختلاف في السكر، أم في الفحم، أم في يد توحة، أم في الحالة التي كنا نذهب بها إليها. لكنني أعرف أن كباية الشاي عند توحة كانت قادرة على ترتيب الفوضى داخلنا.

كنا نطلب الشاي ونصمت أولاً. الصمت أمام النيل كان ضرورياً. لا يصح أن تصل إلى النيل وتبدأ بالكلام فوراً. عليك أن تترك الماء يفتّش فيك قليلاً، أن يسمح للذاكرة أن تجلس، ثم بعد ذلك يبدأ الحديث.

في إحدى الليالي، كان القمر نصف مكتمل، والنيل يبدو كأنه يحمل ضوءاً مكسوراً على ظهره. جلس موسى على الكرسي، مدّ رجليه، وأخذ كباية الشاي بين يديه كأنه يمسك شيئاً ثميناً.

قال:

"يا محمد، نحن بنكبر ولا بنبعد؟"

نظرت إليه. لم تكن جملته من نوع الجمل التي يقولها موسى عادة في بداية الجلسة. كان صوته هادئاً، وفيه شيء من التعب.

قلت:

"يمكن الاتنين".

قال:

"والله مرات بحس الجامعة دي بتقرّبنا من المستقبل، لكن بتبعدنا من الحاجات الكناها".

قلت:

"تقصد القرى؟"

قال:

"القرى، الأهل، البساطة، حتى نحن زمان. الواحد لمن يجي الخرطوم، أول حاجة بتتغير مشيته. بعدين كلامه. بعدين ضحكته. وفي النهاية يمكن قلبه".

قلت له:

"قلبك إنت ما بتغير. الشنب حارسو".

ضحك، لكن ضحكته لم تكن كاملة. رفع الكباية وشرب رشفة طويلة، ثم قال:

"الشنب ممكن يحرس الوش، لكن القلب حراستو صعبة".

سكتُّ. كان موسى، حين يريد، قادراً على أن يقول كلاماً يدخل مباشرة إلى الموضع الذي لا تحب أن يلمسه أحد. كان يضحك كثيراً، لكنه لم يكن خفيفاً. كان في داخله عمق رجلٍ خرج من الريف وهو يعرف أن الحياة لا تعطي مجاناً.

قلت له:

"الخوف من التغيير طبيعي. لكن يمكن الزول يتغير من برة ويظل جوة زي ما هو".

قال:

"وزي ما هو دي منو البحددها؟"

قلت:

"الصديق".

نظر إليّ وقال:

"يعني إنت حتراقبني؟"

قلت:

"أراقبك وأراقب شنبك".

ضحك هذه المرة من قلبه، حتى التفت إلينا رجل يجلس قريباً. قال موسى بصوت منخفض:

"يا زول، الراجل دا يمكن افتكرنا مجانين".

قلت:

"الطالب الجامعي في شارع النيل بعد نص الليل، وهو مفلس وبشرب شاي بالدين، ما بعيد من الجنون".

قال:

"لكن جنون محترم".

كانت تلك الليالي تصنع فينا شيئاً لا نعرف اسمه. في القاعات كنا نتعلم النظريات، وفي أدروب نتعلم الصبر، وفي الداخلية نتعلم الاحتمال، أما في شارع النيل فكنا نتعلم الإصغاء إلى أنفسنا.

كان النيل يجعل الكلام أكثر صدقاً. أمامه لا تستطيع أن تكذب كثيراً. ربما لأن الماء يعرف كيف يسحب الأقنعة من الوجوه. لذلك كنا نتحدث عنده عن أشياء لا نقولها في مكان آخر؛ عن الخوف من الفشل، عن الحنين للأمهات، عن الحب الذي لا نجرؤ على تسميته، عن الوطن الذي كان يسكننا كجرح قديم، وعن المستقبل الذي يشبه باباً مغلقاً نقف أمامه بلا مفتاح واضح.

في تلك الفترة، كان موسى يعيش حالة أسماها هو ذات ليلة: "تصويب الأهداف."

لم يكن يقصد بها الدراسة فقط. كان يقصد القلب أيضاً.

قال لي وهو ينظر إلى آخر الشارع:

"يا محمد، المشكلة ما في إنك تحب. المشكلة تصوّب صاح".

قلت له:

"دي حكمة ولا تجربة؟"

قال:

"التجارب هي البتطلع الحكم".

قلت:

"يعني في موضوع؟"

مسح على شنبه، وابتسم ابتسامة ماكرة:

"المواضيع كتيرة، لكن القروش قليلة".

ضحكت وقلت:

"العلاقة بين الحب والقروش شنو؟"

قال:

"يا زول الحب في الجامعة ببدأ بنظرة، وبمشي بكباية شاي، وبقيف عند حق المواصلات".

قلت:

"كلام مؤلم".

قال:

"لكنو واقعي. الرومانسية بدون ميزانية بتتعب".

ثم صمت قليلاً، وأضاف:

"لكن برضو في حب ما محتاج قروش. محتاج صدق بس".

كانت هناك فتاة تمر أحياناً قرب مجمع الوسط. لم يكن موسى يذكر اسمها. كان يكتفي بأن يقول: "الشتيلة مرت." ومن هنا كبرت بيننا عبارة شتيلة ريد. في البداية كانت مزحة، ثم صارت رمزاً لكل مشاعرنا الصغيرة التي نخجل أن نسميها بأسمائها.

كل شيء في الجامعة كان شتيلة. الصداقة شتيلة. الحب شتيلة. الحلم شتيلة. حتى الكتابة عندي كانت شتيلة تبحث عن تربة.

كنت أقول لموسى:

"يا موسى، شتيلة الريد دي ممكن تكون زولة، وممكن تكون فكرة".

يقول:

"وممكن تكون صحن فول لو كنت جعان".

ثم نضحك.

لكنني كنت أعرف أن وراء مزاحه شيئاً. كان في داخله ريدٌ ما، ريدٌ لا يريد أن يعترف به كاملاً. ربما فتاة، وربما قرية، وربما حياة كان يحلم بها. فبعض الناس لا يحبون شخصاً واحداً، بل يحبون صورة كاملة للحياة: بيتاً هادئاً، أماً راضية، عملاً كريماً، ورفيقة تفهم تعب الطريق.

أما أنا، فكنت أعيش بين الحلم والكتابة. كل موقف يتحول في داخلي إلى جملة. كل ضحكة من موسى تتحول إلى مشهد. كل ليلة في شارع النيل تتحول إلى صفحة تنتظر أن تُكتب. وكنت أخاف من الكتابة كما أحبها؛ أخاف أن لا أستطيع حمل كل هذه التفاصيل، وأن تضيع مني الوجوه كما تضيع بعض الأحلام عند الصباح.

ذات ليلة قلت لموسى:

"أنا خايف أكتب عن الأيام دي في يوم من الأيام وما أقدر أديها حقها".

قال:

"أكتبها زي ما عشناها. ما تلمعها شديد، وما تظلمها شديد".

قلت:

"يعني؟"

قال:

"أكتب إننا كنا بنجوع، لكن بنضحك. كنا بنبرد، لكن بنصبر. كنا مفلسين، لكن ما مكسورين. وأكتب إنو توحة كانت بتعمل أحسن شاي في الخرطوم".

قلت:

"وأكتب عن شنبك؟"

قال بجدية مصطنعة:

"دا فصل براهو".

هكذا كان موسى. يحوّل الخوف إلى دعابة، والدعابة إلى ذكرى، والذكرى إلى معنى.

عند توحة، كنا نرى نماذج كثيرة من الناس. طلاب يراجعون مذكراتهم تحت ضوء خافت، عشاق يتحدثون بصوت منخفض كأن المدينة كلها تتنصت عليهم، عمال أنهوا يومهم وجلسوا لالتقاط أنفاسهم، رجال يحدقون في النيل كأنهم يبحثون عن شيء ضاع منهم منذ زمن.

وكانت توحة تعرف زبائنها. تعرف من يريد الشاي خفيفاً، ومن يريده تقيل، ومن يزيد السكر ليخفي مرارة يومه، ومن يجلس طويلاً لأنه لا يريد العودة إلى مكانٍ ما.

كانت تقول لموسى:

"يا صاحب الشنب، الشاي تقيل كالعادة؟"

فيرد بفخر:

"تقيل يا توحة. الشنب دا ما بشرب خفيف".

فتضحك، ونضحك معها.

في إحدى الأمسيات، جلسنا عندها ولم يكن معنا ما يكفي. كنت أظن أن موسى معه، وكان موسى يظن أنني معي. وبعد أن شربنا الشاي، اكتشفنا الحقيقة المرة: نحن أمام توحة بلا مال.

نظر إليّ موسى، ونظرت إليه. ثم قال بهدوء:

"دي لحظة تاريخية".

قلت:

"تاريخية كيف؟"

قال:

"أول مرة شنب موسى يقع في أزمة مالية أمام توحة".

كتمت ضحكتي، بينما جاءت توحة لتأخذ الحساب. تلعثم موسى قليلاً، ثم قال:

"يا توحة، الحساب الليلة في دفتر الشرف".

نظرت إليه وقالت:

"دفتر الشرف دا مليان منكم يا أولاد الجامعة".

ثم ضحكت، ولوّحت بيدها:

"أمشوا، لكن بكرة ما تجوني فلاس".

مشينا ونحن نضحك ونشعر بالخجل. قال موسى:

"توحة دي لو دخلت كلية الاقتصاد، بتحل مشكلة السودان".

قلت:

"أو تفتح بنك شاي".

قال:

"بنك شاي توحة الإسلامي. التمويل بكباية، والسداد عند الفرج".

كانت تلك المواقف الصغيرة تُثبت لنا أن الناس الطيبين هم الذين يجعلون الحياة محتملة. توحة لم تكن مطالبة بأن تسامحنا، لكنها فعلت. وأدروب لم يكن مطالباً بأن يحتضن أحلامنا، لكنه فعل. والجامعة لم تكن مطالبة بأن تصنع منا رواية، لكنها صنعت.

مرت الأيام، وصار شارع النيل موعداً غير معلن. كلما أثقلتنا الحياة، قلنا دون اتفاق: "نمشي توحة." وكأن الذهاب إلى توحة ليس ذهاباً إلى شاي، بل إلى منطقة آمنة في الروح.

هناك عرف موسى بعض أسراري، وعرفت بعض أسراره. هناك حكيت له عن خوفي من ألا أكون كما يتمنى أهلي. وهناك حدثني عن خوفه من أن يعود إلى قريته بلا إنجاز. كنا أبناء أمهات ينتظرن خبراً طيباً، وأبناء قرى ترى في الجامعة وعداً كبيراً. لم نكن ندرس لأنفسنا فقط. كنا نحمل معنا وجوه الذين ودعونا، ودعوات الذين قالوا لنا: "ارفعوا رأسنا".

قال موسى ذات ليلة:

"أصعب حاجة يا محمد إنك تكون حلم ناس كتار".

قلت:

"وأجمل حاجة برضو".

قال:

"صحيح. لكن الحلم مرات بكون تقيل".

كانت الجملة صادقة. كنا نحمل أحلامنا وأحلام أهلنا، ونحاول ألا ننكسر تحت ثقلها. وكان شارع النيل يخفف عنا ذلك الثقل. كأن النهر يقول لنا: كل شيء يمضي، لكن لا شيء يضيع إن كان صادقاً.

وفي ليلة لا أنساها، كنا جالسين قرب النيل، والهواء يحرّك أطراف القمصان، والشاي يبرد بين أيدينا. قال موسى فجأة:

"يا محمد، وعد".

قلت:

"وعد شنو؟"

قال:

"لو الأيام فرقتنا، ما تنسى الليالي دي".

قلت له:

"ما بنساها".

قال:

"ما تقول ساكت. أكتبها".

قلت:

"حأكتبها".

قال:

"وأكتب إنو موسى دبال كان زولاً أصيلاً".

نظرت إليه مبتسماً:

"دي تخلي القارئ يحكم عليها".

قال:

“لا، دي تكتبها من البداية عشان القارئ ما يتعب”.

ضحكت. لكنه لم يضحك كثيراً. كان في عينيه شيء لم أفهمه يومها. ربما كان إحساساً مبكراً بأن الطرق مهما طالت معاً، لا بد أن تتفرع. وربما كان مجرد حزن عابر جاء مع الليل.

قلت له:

“يا موسى، بعض الناس ما بننساهم حتى لو حاولنا”.

قال:

“والبعض؟”

قلت:

“البعض بنحاول نذكرهم وما بنقدر”.

قال:

“إذن خليك من البعض. أكتب عن الناس البفضلوا”.

كان موسى من الناس الذين يفضلون.

لم أكن أعرف يومها أن تلك الجلسة ستعود إليّ بعد سنوات بكامل تفاصيلها: النيل، توحة، الشاي، صوت موسى، حركة شنبه، والجملة التي خرجت منه كوصية خفيفة:

"أكتب عن الناس البفضلوا".

وهأنذا أكتب.

أكتب لأن شارع النيل ما زال في القلب، ولأن توحة ما زالت تصب الشاي في ذاكرة بعيدة، ولأن موسى ما زال يمشي بجواري كلما عدت إلى تلك الليالي.

أكتب لأن شتيلة الريد التي نبتت في جامعة الخرطوم لم تكن شتيلة عابرة. كانت شتيلة صداقة، ووفاء، وحنين. سقتها أدروب بالفول، والداخلية بالبرد، وشارع النيل بالشاي، حتى صارت شجرةً في الذاكرة.

وفي تلك الليلة، ونحن نعود من توحة إلى الداخلية، كان موسى يمشي بجانبي ويغني بصوت خافت أغنية قديمة لا أعرف كل كلماتها. كان الشارع شبه خالٍ، والجامعة نائمة، والنيل خلفنا يواصل جريانه كأنه يعرف أن عمرنا سيمضي مثل مائه.

قال موسى وهو ينظر إلى السماء:

"يا محمد، الحياة دي لو ما فيها أصحاب، كان بقت صعبة شديد".

قلت له:

"هي صعبة، لكن أصحابنا بغطوا على الصعوبة".

قال:

"زي السكر في شاي توحة".

قلت:

"بالضبط".

ضحك، ثم قال:

"لكن بدون زيادة، عشان السكري".

كان لا بد أن يختم الحكمة بالنكتة. تلك كانت طريقته في النجاة.

وصلنا إلى الداخلية متأخرين. كان البرد ينتظرنا عند الباب، والغرفة ضيقة كما هي، والبطاطين القديمة في مكانها. لكن شيئاً في داخلنا كان دافئاً. ربما الشاي، وربما الكلام، وربما النيل، وربما تلك المعرفة العميقة بأن الإنسان مهما كان فقيراً ومتعباً، يستطيع أن يكون غنياً بصديق واحد صادق.

وفي تلك الليلة، قبل أن أنام، سمعت موسى يقول من سريره:

"يا محمد".

قلت:

"نعم".

قال:

"بكرة أدروب؟"

قلت:

"أكيد".

قال:

"والله نحن ناس برنامجنا واضح: علم، فول، شاي، ونيل".

قلت:

"وبرضو برد".

قال:

"البرد دا ضيف غير مرغوب، لكن متعودين عليهو".

ثم سكت قليلاً، وأضاف:

"تصبح على ريد".

قلت له:

"وتصبح على شتيلة".

ضحكنا بصوت منخفض، حتى لا نوقظ الآخرين.

ثم نامت الغرفة.

لكن الذاكرة لم تنم.

الفصل الخامس : شتيلة ريد وتصويب الأهداف

لم تكن كلمة الريد في جامعة الخرطوم كلمة خفيفة كما يظن البعض. كانت كلمة تمشي بين الطلاب بحذر، تتخفى أحياناً في نظرة، وتظهر أحياناً في قصيدة مكتوبة على ظهر كراسة محاضرات، أو في انتظار طويل عند ممر كلية الآداب، أو في كوب شاي يُشرب ببطء لأن صاحبه لا يريد للمساء أن ينتهي.

أما عند موسى، فقد كان الريد مشروعاً يحتاج إلى تخطيط، مثل الامتحانات، ومثل السفر، ومثل شراء فتة الفول في آخر الشهر.

كان يقول لي:

"يا محمد، الريد دا ما ساكت. لازم زول يصوّب صاح".

ومن يومها صارت عبارة تصويب الأهداف جزءاً من قاموسنا السري. إذا رأينا طالباً يكثر المرور أمام كلية معينة قلنا: "الزول دا بصوّب." وإذا جلس أحدهم في أدروب صامتاً يحرّك الشاي دون أن يشربه قلنا: "الهدف بعيد." وإذا جاءنا زميل في حالة فرح غامض قلنا: "الطلقة مشت".

ضحك كثير كان يخرج من تلك اللغة، لكن خلف الضحك كانت هناك قلوب صغيرة تحاول أن تفهم معنى المحبة.

كانت الجامعة تصنع فينا رجولة مبكرة، لكنها في الوقت ذاته تترك داخلنا طفلاً خجولاً أمام أول إحساس صادق. الطالب الذي يناقش السياسة بجرأة، ويرفع صوته في الندوات، ويقف أمام الأستاذ بلا خوف، قد يرتبك تماماً إذا مرت فتاة أحبها من بعيد.

وكان موسى، رغم شنبه الكبير وهيبته الريفية، واحداً من هؤلاء.

لم يكن يعترف بسهولة. كان يدّعي أن الأمر مجرد "رصد ميداني"، وأنه لا يقع في الريد مثل بقية الناس. لكنه كان كلما مرت تلك الفتاة قرب مجمع الوسط، اعتدل في جلسته، ومسح على شنبه، وغيّر نبرة صوته.

قلت له ذات مرة:

"يا موسى، الشنب دا لمن هي تمر بيه بقى عندو حركة خاصة".

قال بجدية:

"دا احترام للمارين".

قلت:

"كل المارين؟"

نظر إليّ بطرف عينه وقال:

"بعض المارين عندهم وضع خاص".

كانت فتاة هادئة، تمشي بثقة لا تشبه ضجيج الجامعة. لا أعرف إن كانت من كلية الآداب أو الاقتصاد أو القانون، فموسى نفسه لم يكن متأكداً، أو ربما كان يعرف ولا يريد أن يخبرني. كان يسميها فقط:

"الشتيلة".

في البداية ظننتها مزحة عابرة، لكنه ظل يستخدم الاسم حتى صار حقيقياً. كلما مرت قال:

"الشتيلة جات".

وإذا غابت يومين قال:

"الجامعة ناشفة اليومين ديل".

قلت له:

"يا موسى، إنت كده دخلت مرحلة الري".

قال:

"أي شتيلة محتاجة ري يا زول".

قلت:

"لكن الري بدون تصريح ممكن يجيب مشكلة".

ضحك وقال:

"نحن ناس محترمين. نروي بالنظر من بعيد".

كان الريد في تلك الأيام بريئاً وخجولاً. لم تكن الهواتف قد سرقت رهبة الانتظار كما تفعل الآن، ولم تكن الرسائل تصل في لحظة. كان الحب يحتاج إلى صبر، وإلى صدفة، وإلى طريق تمشيه أكثر من مرة على أمل أن يحدث لقاء عابر. وكانت النظرة الواحدة تكفي لتغيير يوم كامل.

موسى كان يرى في تلك الفتاة شيئاً يشبه القرية؛ هدوءاً، بساطة، وملامح لا تتكلف. وربما لهذا أحبها من بعيد. هو لم يكن يبحث عن جمال يثير الضجيج، بل عن طمأنينة تشبه دعاء أمه، وعن حضور إذا مرّ جعل المكان أقل قسوة.

ذات مساء، كنا في أدروب، وكان موسى صامتاً على غير عادته. أمامه كباية شاي لم يلمسها، وصحن فول يبرد بهدوء. وهذه عند موسى علامة خطيرة؛ أن يبرد الفول أمامه ولا يأكله، فذلك يعني أن هناك أمراً أكبر من الجوع.

قلت له:

"يا موسى، الفول دا لو عندو كرامة كان قام مشى".

قال:

"خليه".

قلت:

"خليه؟ إنت موسى دبال تقول للفول خليه؟ لا، في مصيبة".

تنهد وقال:

"يا محمد، الشغلة ما سهلة".

قلت:

"أي شغلة؟"

قال:

"شتيلة الريد".

سكتُّ قليلاً. كان صوته هذه المرة خالياً من المزاح. أدركت أن الأمر خرج من دائرة التعليقات إلى منطقة القلب.

قلت له:

"مالك؟"

قال:

"أنا زول بسيط. من عراق. جاي الجامعة ومعاي أحلام أهلي. ما عاوز أدخل في حاجة تضيعني. لكن مرات الزول يلقى روحو ما قادر يمنع قلبو".

قلت:

"القلب ما بتمنع، لكن بتقوده".

قال:

"وأقودو كيف؟"

قلت:

"بالعقل".

ضحك بسخرية خفيفة:

"العقل دا بيجي بعد ما الفول يبرد؟"

قلت:

"أحياناً بعد ما الشاي يبرد برضو".

ابتسم، ثم عاد إلى صمته.

كنت أعرف ما يخيفه. لم يكن يخاف من الرفض فقط، بل من أن يسمح لقلبه بأن ينشغل في زمن يحتاج فيه إلى التركيز. كان يخاف أن يخون حلم أمه، وأن يعود إلى القرية وهو يحمل وجعاً جديداً بدلاً من الشهادة. وكان يخاف كذلك من طبقته البسيطة، من جيبه الفارغ، ومن تلك المسافة التي يشعر بها أبناء الريف حين يقفون أمام أحلام تبدو أكبر منهم.

قال موسى:

"يا محمد، في ناس الريد عندهم نزهة. نحن الريد عندنا مسؤولية".

كانت الجملة ناضجة أكثر من عمرنا. في تلك اللحظة، لم أرَ أمامي صاحب النكات والشنب فقط، بل رأيت شاباً سودانياً قادماً من قرية، يعرف أن قلبه ليس ملكه وحده، وأن كل خطوة في حياته محسوبة على أهل ينتظرون منه الكثير.

قلت له:

"إنت ما غلطان تحس. لكن ما تخلي الإحساس ياكلك".

قال:

"يعني أعمل شنو؟"

قلت:

"خلي الشتيلة تكبر براحة. ما تستعجل قطفها".

نظر إليّ، ثم قال:

"الكلام دا جميل. واضح إنك كاتب ساكت".

قلت:

"ساكت؟"

قال:

"أيوه. الكاتب بقول كلام جميل، لكن لمن تجي الحقيقة بتلقى جيبو فاضي".

ضحكنا، وعاد إلى الفول أخيراً. وحين بدأ يأكل، عرفت أن الأزمة الأولى مرت بسلام.

لكن شتيلة الريد لم تكن عند موسى وحده. كانت الجامعة كلها مليئة بشتائل صغيرة. هناك من يحب فتاة لا تعرف اسمه، وهناك من ينتظر خطاباً من قريته، وهناك من يحب فكرة السفر، وهناك من يحب السياسة حتى تحرقه، وهناك من يحب الشعر، وهناك من يحب نفسه أكثر من اللازم. كل واحد كان يحمل شتيلته ويمشي، يحاول أن يجد لها ماءً وشمساً ومكاناً آمناً.

أما شتيلتي أنا، فكانت الكتابة.

كنت أراقب موسى وأعرف أنني سأكتب عنه يوماً ما. لم أقل له ذلك بوضوح، لكنه كان يشعر. كان يضبطني أحياناً وأنا أحدق فيه بعد أن يقول جملة ما، فيقول:

"يا محمد، ما تحولني شخصية روائية وأنا لسه حي".

أقول له:

"إنت خلقت شخصية جاهزة".

يقول:

"بس ما تكذب في الوصف".

أقول:

"يعني أكتب الشنب كما هو؟"

يرفع رأسه بفخر:

"أكتب الشنب بأمانة تاريخية".

كان موسى يدرك أن للكتابة خيانة صغيرة؛ فهي تأخذ الناس من حياتهم العادية وتضعهم في ذاكرة الآخرين. وربما كان يخاف أن أجمّله أكثر من اللازم، أو أفضحه أكثر من اللازم. لكنه كان يحب أن يسمع نفسه في الحكاية.

ذات ليلة، كنا نمشي من أدروب إلى الداخلية، وكان القمر ضئيلاً، والجامعة ساكنة إلا من خطوات متفرقة. قال لي فجأة:

"يا محمد، إنت لو كتبت عني، الناس حتصدق إني كنت كده؟"

قلت:

"كده كيف؟"

قال:

"زول بضحك كتير، لكن جواهو حاجات ما بتضحك".

توقفت للحظة، ثم قلت:

"دي أكثر حاجة الناس حتصدقها. لأن كل زول فينا كده".

هز رأسه ولم يرد.

كان موسى يفهم أن الإنسان ليس وجهاً واحداً. كان ضاحكاً، نعم، لكنه لم يكن خالياً من الحزن. كان ساخراً، لكنه لم يكن سطحياً. كان قوياً، لكنه يلين إذا جاء ذكر أمه. كان صاحب شنب كبير، لكنه يحمل قلباً أرق من ملامحه.

وفي الأسبوع التالي، حدث ما كنا نسميه نحن "أول اقتراب رسمي من الهدف."

كانت هناك فعالية طلابية في الجامعة، تجمع عدداً من الكليات. ازدحم المكان بالطلاب، بالأحاديث، بالضحك، وبالأوراق المعلقة على الجدران. كنت مع موسى حين لمح "الشتيلة" تقف قرب مجموعة من الطالبات.

ارتبك. نعم، ارتبك صاحب الشنب الكبير.

قال لي:

"يا محمد، نمشي من الناحية التانية".

قلت:

"ليه؟ الهدف هناك".

قال:

"الهدف محروس".

قلت:

"ما مشكلة. دا تدريب ميداني".

قال:

"أنا ما جاهز".

قلت:

"يا زول، إنت بتتكلم عن تصويب الأهداف من شهرين. الليلة جاء الميدان".

مسح على شنبه بسرعة، ثم عدل قميصه، ونظر إليّ نظرة حادة:

"شكلي كيف؟"

قلت:

"تاجر أنعام مثقف".

كاد أن يضحك، لكنه تماسك:

"جاد يا محمد".

قلت:

"شكلك كويس. امشي سلم كزميل جامعة. لا أكثر".

مشى خطوتين، ثم عاد.

قلت:

"مالك؟"

قال:

"نسيت الموضوع".

قلت:

"أي موضوع؟"

قال:

"الحجة. ما ممكن أمشي ساكت".

بحثنا سريعاً عن حجة. كانت هناك ورقة برنامج الفعالية على طاولة قريبة.

أخذها موسى كمن يحمل تصريح عبور، ومشى باتجاه المجموعة.

كنت أراقبه من بعيد. رأيته يقترب، ثم يتحدث. لم أسمع ما قاله، لكنني رأيت شنبه يتحرك، ورأيت الفتاة تبتسم ابتسامة خفيفة. كانت ابتسامة صغيرة، لكنها عند موسى كانت فتحاً عظيماً.

عاد إليّ وهو يحاول أن يبدو عادياً.

قلت:

"أها؟"

قال:

"تم الاختراق".

قلت:

"شنو قلت؟"

قال:

"سألتها عن زمن الفعالية".

قلت:

"والورقة في يدك؟"

نظر إلى الورقة، ثم إلى وجهي، ثم انفجرنا ضاحكين.

قال:

"والله دي غلطة تكتيكية".

قلت:

"لكنها ابتسمت".

قال:

"الابتسامة دي تؤكد إنو الهدف ما بعيد".

قلت:

"أو تؤكد إنها لاحظت إنك حامل الجدول وبتسأل عن الجدول".

قال:

"ما تفسد التحليل".

ذلك اليوم أصبح عيداً صغيراً في حياتنا. ظل موسى يروي الحكاية كأنها معركة بطولية، مع تعديلات طفيفة في كل مرة. مرة يقول إنه تحدث بثقة، ومرة يقول إن الحوار كان عميقاً، ومرة يزعم أنها هي التي فتحت باب الحديث. وأنا أتركه يروي، لأن بعض المبالغات ضرورية لحماية الحلم.

لكنني كنت أرى أثر تلك الابتسامة عليه. صار أكثر ترتيباً. يحضر المحاضرات بنشاط أكبر. يهتم بقميصه. يمشط شعره بعناية. وكان شنبه ينال نصيبه من التهذيب وكأنه يستعد لدور وطني.

قلت له:

"يا موسى، الريد حسّن الأداء الأكاديمي".

قال:

"طبعاً. الريد طاقة متجددة".

قلت:

"لكن انتبه من الاحتراق".

قال:

“نحن ناس الريف بنعرف نسقي الشتائل”.

مرت الأيام، ولم تتحول القصة إلى حب كامل كما في الروايات السريعة. بقيت في منطقة العبور الخفيف: سلام، ابتسامة، سؤال عن محاضرة، لقاء عابر في الفعالية، ونظرات يحاول موسى إنكارها. لكنها كانت كافية لتمنح أيامه نكهة مختلفة.

والحقيقة أن الجامعة لم تكن تحتاج إلى قصص كبيرة لتصنع الفرح. كان يكفي أن تراك من تحب، أو أن يذكرك صديق، أو أن تجد مقعداً في أدروب، أو أن يتأخر الأستاذ عن المحاضرة، أو أن يأتيك خطاب من البيت. كانت أفراحنا صغيرة، لكنها حين تصل، تملأ الروح كلها.

في إحدى الليالي عند توحة، قال موسى:

“يا محمد، تتخيل الشتيلة دي بعد سنين ما تتذكرني أصلاً؟”

قلت:

“يمكن”.

قال:

"يعني أنا أعيش القصة دي كلها وهي ما عارفة؟"

قلت:

"كتير من الحكايات العظيمة عاشها طرف واحد".

قال:

"دا ظلم".

قلت:

"لكنو يحدث".

صمت قليلاً، ثم قال:

"طيب لو ما عرفتني، على الأقل أنا عرفت نفسي".

كانت جملة عجيبة. سألته:

"كيف؟"

قال:

"عرفت إنو جواي قلب ما مات من الجوع والبرد. لسه قادر يحب حاجة جميلة".

لم أجد ما أقوله. كان كلامه أصدق من أي تعليق. نعم، ربما كانت قيمة شتيلة الريد أنها كشفت له أن داخله لا يزال أخضر، رغم قسوة الأيام. وأن الطالب الذي يطارد المحاضرات واللقمة والبطانية لا يزال قادراً على أن يندهش بابتسامة.

وهذا في حد ذاته كان انتصاراً.

في تلك الفترة، بدأت أفهم أن الريد في عنوان حياتنا لم يكن يعني العشق وحده. الريد كان أوسع. ريد الصديق لصديقه. ريد الطالب لجامعته. ريد ابن القرية لأمه وأرضه. ريد الكاتب لكلماته. ريد الإنسان للحياة رغم تعبها.

كانت شتيلة ريد في جامعة الخرطوم ليست فتاة فقط، ولا قصة عاطفية عابرة، بل كانت رمزاً لكل شيء جميل نبت فينا هناك.

نبتت الصداقة بيني وبين موسى.

نبتت الكتابة في داخلي.

نبت الحلم في قلبينا.

ونبتت في موسى تلك الرغبة البسيطة في أن يكون محبوباً كما هو؛ لا كطالب متفوق فقط، ولا كرجل صاحب شنب وهيبة، بل كإنسان يخاف ويضحك ويجوع ويحلم.

وذات مساء، ونحن عائدان من شارع النيل، قال لي موسى:

"يا محمد، عارف؟ يمكن الريد الحقيقي ما لازم ينتهي بزواج ولا خطاب ولا كلام كبير".

قلت:

"أمال ينتهي بشنو؟"

قال:

"ينتهي بأنه يخليك أحسن".

قلت:

"والشتيلة خلتك أحسن؟"

ابتسم وقال:

"على الأقل خلتني أغسل قميصي مرتين في الأسبوع".

ضحكت، فقال:

"ما تستهين. النظافة بداية الحضارة".

كان لا بد أن يعود إلى المزاح. لكنني كنت أعرف أنه قال حقيقة مهمة. بعض المحبة لا تأتي لتبقى معنا، بل لتوقظ فينا شيئاً نائماً. بعض الوجوه تمر في حياتنا كالمطر الخفيف؛ لا تغرق الأرض، لكنها تكفي لتثبت أن السماء ما زالت قادرة على العطاء.

وفي نهاية ذلك الفصل من أيامنا، لم أعرف هل أحب موسى تلك الفتاة حقاً، أم أحب الفكرة التي صنعتها في داخله. لكنه كان أكثر إشراقاً، وأكثر خوفاً، وأكثر إنسانية. وهذا يكفي.

أما أنا، فقد كنت أراقب شتيلة الريد وهي تكبر حولنا، لا في قلب موسى وحده، بل في الجامعة كلها. كل ضحكة كانت ورقة، كل موقف كان غصناً، كل مشوار إلى أدروب كان ماءً، وكل ليلة عند توحة كانت قمراً صغيراً يحرسها.

وفي تلك الأيام عرفت أن أجمل ما في الشباب ليس أننا نعرف الطريق، بل أننا نمشيه ونحن نظن أن كل شيء ممكن.

كنا نخطئ التصويب كثيراً، نعم.

لكننا كنا نملك شجاعة أن نصوّب.

وكنا نفشل أحياناً، لكن الفشل في سن الجامعة لا يكون نهايةً، بل حكاية تُروى لاحقاً عند الشاي.

أما موسى، فكان كلما سألته عن شتيلته، يبتسم ويقول:

"لسه بنسقي".

وأنا أقول له:

"انتبه، لا تزيد الموية".

فيرد بثقة:

"يا زول، أنا من ناس الأرض. بعرف الري".

وهكذا مضت الأيام.

بين هدفٍ بعيد، وشتيلةٍ صغيرة، وصديقٍ يضحك من خوفه، وكاتبٍ يتعلم كيف يحول الحياة إلى رواية.

وكانت جامعة الخرطوم، بأشجارها وقاعاتها وكافتيرياتها وداخلياتها وشارع النيل القريب منها، تراقبنا بصمت، كأمٍ عتيقة تعرف أن أبناءها سيغادرون يوماً، لكنهم سيحملون ترابها في قلوبهم إلى الأبد.

الفصل السادس : يعرف كل شيء عني

هناك أصدقاء تعرفهم الأيام، وهناك أصدقاء تعرفهم الروحِ من أول الطريق.

موسى أحمد محمد النور دبال لم يكن زميلاً عادياً في جامعة الخرطوم، ولا رفيق كافتيريا، ولا صاحب ضحكة عابرة في برد الداخلية. كان من ذلك النوعِ النادر من الناس الذين يدخلون حياتك بهدوء، ثم تكتشف بعد زمن أنهم صاروا جزءاً من تفسيرك لنفسك.

كان يعرف عني ما لا يعرفه الآخرون.

يعرف متى أكون صامتاً لأنني متعب، ومتى أكون صامتاً لأن في داخلي كلاماً كثيراً. يعرف متى أضحك من قلبي، ومتى أضحك حتى لا يراني الناس مكسوراً. يعرف متى أحتاج إلى نصيحة، ومتى أحتاج فقط إلى شخص يمشي معي دون أن يكثر السؤال.

وكانت تلك المعرفة لا تأتي من كثرة الكلام وحده، بل من العشرة.

العشرة التي تبدأ بصحن فول، ثم تكبر حتى تصير أماناً.

في الجامعة، كان لكل طالب وجهان على الأقل؛ وجه يراه الناس في القاعات والممرات، ووجه آخر يعود به إلى الداخلية حين ينتهي النهار. أما موسى، فقد رأى وجوهي كلها تقريباً. رآني وأنا متحمس، ورآني وأنا خائف، ورآني وأنا أكتب، ورآني وأنا أفشل في إخفاء الحنين إلى عجان.

وذات مساء، كنا جالسين تحت شجرة قريبة من كلية الآداب. كان اليوم ثقيلاً، والمحاضرات أطول من احتمالنا، والحرارة كأنها قررت أن تختبر صبر الطلاب جميعاً. كنت صامتاً، أحدق في الأرض، وأحرّك طرف حذائي في التراب.

قال موسى فجأة:

"يا محمد، الليلة قلبك في عجان".

رفعت رأسي ونظرت إليه.

"عرفت كيف؟"

قال:

“لمن تكون مشتاق للبلد، عينك بتبقى ما شايفة الجامعة. بتشوف حاجة بعيدة”.

لم أجب.

كان محقاً.

كنت في ذلك اليوم أشتاق إلى عجان بطريقة موجعة. أشتاق إلى أمي، إلى صوت البيت، إلى الهدوء، إلى تلك الحياة التي تركتها وأنا أظن أنني أترك مكاناً فقط، فإذا بي أكتشف أنني تركت جزءاً من جلدي هناك.

قال موسى وهو يضع يده على كتفي:

“الشوق ما عيب يا زول. العيب إنك تعمل فيها حجر”.

قلت له:

“مرات بحس إني جاي الجامعة دي شايل توقعات أكبر مني”.

قال:

“كلنا شايلين. الفرق إنو في زول بيعترف، وفي زول بتخبى خلف الشنب”.

نظرت إلى شنبه، فضحك.

ثم قال بجدية:

"لكن اسمعني. أهلك ما رسلوك عشان تكون ملاك. رسلوك عشان تحاول. والمحاولة دي براها بتفرحهم".

كانت كلماته بسيطة، لكنها فتحت في داخلي نافذة. لم يكن موسى يستخدم لغة الكتب، ولا يتكلم كخطيب في منبر، لكنه كان يملك تلك الحكمة التي تخرج من التجربة مباشرة، بلا زخرفة ولا ادعاء.

قلت له:

"وإنت؟ ما بتشتاق لعراق؟"

تنهد، ثم قال:

"بشتاق لدرجة مرات بحس ريحة البلد في هدومي".

قلت:

"دي مبالغة".

قال:

"لا والله. في ريحة ما بتطلع بالغسيل. ريحة البيت. ريحة الناس. ريحة الزول كان منو قبل ما تجي المدينة تغيّر لونو".

ثم سكت.

كان موسى حين يذكر عراق يتغير. يهدأ، ويتكلم كأنه يفتح باباً لا يدخله الناس بسهولة. يحدثني عن القرية، عن الطرق الترابية، عن الوجوه، عن الأطفال، عن الرجال الجالسين في الظل، عن مواسم المطر، وعن أمه التي كانت حاضرة في كلامه مثل دعاءٍ لا ينقطع.

قال مرة:

"أمي لو شافتني هنا بردان وجعان، كان قلبها اتقطع".

قلت له:

"عشان كدا ما بنقول ليهم الحقيقة كلها".

قال:

"أيوه. الطالب الجامعي أكبر كذاب محترم. يقول ليهم: الحمد لله، تمام. وهو يكون لسه شارب شاي بالدين".

ضحكنا، لكن ضحكتنا كانت تحمل مرارة خفيفة.

كنا نكذب على الأمهات حتى لا يقلقن. نختصر التعب في كلمة "تمام"، ونخفي الجوع خلف "الحمد لله"، ونحوّل البرد إلى نكتة، والقلق إلى وعد بأن كل شيء سيكون بخير.

وموسى كان يعرف ذلك.

يعرف كم مرة كتبت رسالة إلى البيت ثم مزقتها لأنني شعرت أنها تكشف ضعفي أكثر مما ينبغي. يعرف كم مرة وقفت أمام مكتب البريد أو الهاتف العام، أراجع الكلمات في رأسي حتى لا يسمع أهلي اهتزاز صوتي. يعرف كم مرة قلت "أنا بخير" وأنا لست كذلك.

وكان لا يفضحني.

هذه واحدة من صفات الصديق الحقيقي: يعرف ضعفك، لكنه لا يستخدمه ضدك.

في إحدى الليالي، كنت قد دخلت في ضيق شديد بسبب نتيجة امتحان. لم تكن النتيجة كارثية، لكنها كانت أقل مما توقعت، وأقل مما تمنيت، وأقل مما

يسمح لي أن أعود إلى نفسي مطمئناً. جلست في الغرفة، والورقة أمامي، وشعرت كأن كل أحلامي وقفت فجأة لتسألني: "أها؟"

دخل موسى، فرآني.

لم يسأل فوراً. نظر إلى الورقة، ثم إلى وجهي، ثم قال:

"دي ورقة امتحان ولا شهادة وفاة؟"

لم أضحك.

جلس بجواري، أخذ الورقة، قرأ النتيجة، ثم قال:

"يعني الدنيا انتهت؟"

قلت بعصبية:

"بالنسبة لي دي نتيجة سيئة".

قال:

"كويس. معناها لسه عندك طموح".

قلت:

"ما عاوز فلسفة يا موسى".

قال بهدوء:

"ما فلسفة. حقيقة. الزول البزعل من نتيجة ضعيفة، معناها عارف نفسو بقدر على أحسن".

صمتٌ.

قال:

"أها، نعمل شنو؟ نقعد نبكي؟ ولا نمشي أدروب نشرب شاي ونرجع نذاكر؟"

قلت:

"ما عندي نفس".

قال:

"النفس بجي بعد الشاي".

ثم أخذ الورقة، طواها، ووضعها داخل كتابي.

"الورقة دي ما حكم محكمة. دي تنبيه بس".

خرجنا إلى أدروب. لم أكن راغباً في الذهاب، لكنه أصر. في الطريق ظل يتحدث عن أشياء لا علاقة لها بالامتحان؛ عن الفول، وعن طالب سقطت منه كراسته في الطين، وعن رجل يشبه أستاذاً عند بوابة الجامعة. كان يحاول أن يسحبني من حفرة النتيجة دون أن يقول: "اخرج من الحفرة".

وهذه كانت موهبته.

وصلنا أدروب. طلب شايين، ثم قال:

"يا محمد، الجامعة دي لو دايرة تكسرنا، تلقانا كتار. ما بتقدر".

قلت:

"كتار منو؟"

قال:

"أنا وإنت والفول وتوحة والنيل والشنب".

ضحكت رغماً عني.

قال:

"أها، رجعت".

كان يعرف أن أول ضحكة بعد الحزن إعلان نجاة.

لم تكن علاقتنا كلها حزناً ونصائح. بالعكس، كان معظمها ضحكاً ومشاوير وسخرية من الحياة. لكن قيمة الصداقة تظهر حين يثقل اليوم. وموسى كان هناك في الأيام الثقيلة، لا يهرب، ولا يمل، ولا يتركك تسقط وحدك.

كان يعرف أيضاً أحلامي الخفية.

يعرف أنني أريد أن أكتب، لا كمجرد هواية، بل كطريق. كان يرى ذلك في طريقتي وأنا ألتقط الجمل من أفواه الناس، وفي صمتي حين أسمع حكاية، وفي الدفاتر الصغيرة التي أحملها كأنها أسرار دولة.

قال لي ذات مرة ونحن في شارع النيل:

"يا محمد، إنت ما بتكتب عشان داير تبقى مشهور. إنت بتكتب عشان لو ما كتبت بتتعب".

قلت له:

"يمكن".

قال:

"لا، أكيد. أنا بعرفك. الكتابة عندك زي الشاي عند توحة. ضرورة".

قلت:

"والفول عندك؟"

قال:

"الفول عندي عقيدة".

ضحكت، فقال:

"لكن جد. أكتب. ما تخلي الحاجات دي تضيع. نحن عشنا أيام تستاهل تتكتب".

قلت:

"والناس حتقرأ عن شنو؟ عن طالبين مفلسين؟"

قال:

"أيوه. لأن الناس كلها عندها نسخة من طالبين مفلسين جوّاها. الفرق إنك تقدر تقول الكلام".

كان موسى يؤمن بي بطريقة لا يعلنها كثيراً. لم يكن يمدح مباشرة، لكنه كان يدفعني دفعاً خفيفاً. إذا قرأت عليه نصاً قال: "فيهو ريحة." وإذا أعجبه جداً قال: "دا كلام ناس عاشوا." وإذا لم يعجبه قال: "الكلام دا لابس بدلة ما حقته".

كنت أفهم قصده. كان يريد أن أكتب بصدق، لا بتصنع. أن أكتب عن عجان، وعراق، وأدروب، والداخلية، وشارع النيل. أن أكتب عن الناس كما هم، لا كما يحبون أن يظهروا.

وفي مرة قرأت عليه مقطعاً مليئاً بالصور الكبيرة والكلمات الثقيلة. ظل يسمع حتى انتهيت، ثم قال:

"كويس، لكن وين نحن؟"

قلت:

"كيف يعني؟"

قال:

"الكلام دا ممكن يكتبو أي زول. أنا داير الكلام البقول: دا محمد ود عجان. دا الزول الشرب شاي عند توحة، والبرد عضاهو في الداخلية، وصاحبو موسى عندو شنب زي لافتة".

سكتُّ. كان نقده مضحكاً، لكنه دقيق.

من يومها بدأت أفهم أن الكتابة لا تحتاج دائماً إلى أن تصعد إلى السماء. أحياناً عظمتها في أن تنحني نحو الأرض، تلتقط منها وجهاً، رائحة، نكتة، دمعة، أو صحن فول.

وكان موسى، دون أن يدري، أستاذاً في الصدق.

كما كان يعرف ضعفي، كنت أعرف ضعفه.

كنت أعرف أن وراء صوته العالي خوفاً لا يريد لأحد أن يراه. خوف من الفشل، من خيبة الأهل، من ضياع العمر في طرق لا تصل. كنت أعرف أن مزاحه الكثير ليس خفة دائماً، بل درع. وأن الشنب الذي يتباهى به ليس زينة فقط، بل واجهة يحتمي خلفها قلب طيب.

حين تأتيه رسالة من البيت، كان يقرأها أكثر من مرة. يتظاهر بأنها عادية، لكن عينيه تفضحانه. يقول:

"أها الجماعة بخير".

ثم يطوي الرسالة بعناية، كأنها قطعة قماش ثمينة.

أسأله:

"أمك كتبت؟"

يقول:

"أيوه. بتسأل لو لابس كويس".

أقول:

"وقلت ليها شنو؟"

يرد:

"قلت ليها لابس كويس. طبعاً ما حأقول ليها البطانية بتشبه منديل".

ثم يسكت.

كنت أعرف أنه يريد أن يضحك، لكنه قريب من البكاء. فأترك له المساحة.

كما لا يفضحني، لا أفضحه.

الصداقة ليست أن تعرف فقط، بل أن تعرف متى تصمت.

وذات يوم، بعد محاضرة طويلة، جلسنا قرب المكتبة. كان موسى شارد الذهن، على غير عادته. حاولت أن أجرّه إلى الكلام، فأجاب بكلمات قصيرة. أدركت أن وراءه شيئاً.

قلت له:

"قلبك في عراق اليوم".

ابتسم ابتسامة باهتة:

"اتعلمت الحركة؟"

قلت:

"من أستاذ كبير".

قال:

"أمي تعبانة شوية".

لم يقل أكثر. ولم أطلب أكثر.

جلست بجواره. بقينا صامتين طويلاً. كان الطلاب يمرون من أمامنا، بعضهم يضحك، بعضهم يحمل كتباً، بعضهم يركض خلف محاضرة. أما نحن فكنا في مكان آخر، مكان بين جامعة الخرطوم وقرية عراق، بين مقعد حجري وقلب أم مريضة.

بعد قليل قلت:

"نقوم نصلي وندعو ليها".

هز رأسه.

قمنا ومشينا إلى مسجد الجامعة. صلينا، ودعا موسى طويلاً. رأيته يرفع يديه، ثم يمسح وجهه ببطء. لم أرَ شنبه يومها، رأيت طفلاً يخاف على أمه.

بعد الصلاة، خرجنا. قال لي:

"شكراً".

قلت:

"على شنو؟"

قال:

"لأنك ما سألت كتير".

قلت:

"أحياناً السؤال الكتير بوجع".

قال:

"صحيح".

ومنذ تلك اللحظة، صار بيننا نوع آخر من الفهم. لم نعد نحتاج إلى شرح طويل.
كلمة واحدة تكفي. نظرة تكفي. صمت يكفي.

في تلك السنوات، تعلّمت أن الصديق القريب ليس بالضرورة أكثر الناس كلاماً
معك، بل أكثرهم قدرة على قراءة ما بين كلامك. وموسى كان يقرأني جيداً.
وأنا كنت أقرأه، ربما لا كما يقرأني، لكن بما يكفي لأعرف متى أتركه يضحك،
ومتى أمشي معه إلى المسجد، ومتى أقول له: "نمشي توحة".

وكانت "نمشي توحة" عندنا تعني أشياء كثيرة.

تعني: أنا تعبان.

تعني: محتاج أتكلم.

تعني: محتاج أسكت مع زول بفهمني.

تعني: الدنيا ضاقت، والنيل أوسع.

وفي إحدى الليالي، ونحن عند توحة، قال موسى:

"يا محمد، تعرف أكتر حاجة مخوفاني؟"

قلت:

"شنو؟"

قال:

"إنو بعد الجامعة، كل زول يمشي في طريق، ونبقى نسمع أخبار بعض من الناس".

قلت:

"ما بنسمح لكدا".

قال:

"الحياة ما بتستأذن".

كانت جملته ثقيلة. حاولت أن أخففها:

"إنت لو اختفيت، شنبك بيدلنا عليك".

ابتسم، لكن عينيه ظلتا جادتين.

قال:

"جد يا محمد. الجامعة بتجمع الناس بطريقة عجيبة. لكن بعدين بتفرّقهم بطريقة أعجب".

قلت:

"حتى لو فرقتنا، في حاجات ما بتتفك".

قال:

"زي شنو؟"

قلت:

"زي الزول البعرف كل شيء عنك".

نظر إليّ طويلاً، ثم قال:

“أها دي تكتبها”.

قلت:

“شنو؟”

قال:

“إنو الصديق الحقيقي ما البقعد معاك كل يوم. الصديق الحقيقي البعرف كل شيء عنك، ومع ذلك يفضل صاحبك”.

لم أعلّق. وضعت الجملة في داخلي كما يضع الكاتب بذرة في تربة رطبة.

نعم.

الصديق الحقيقي هو الذي يعرف كل شيء عنك، ومع ذلك يظل صاحبك.

يعرف ضعفك ولا يحتقرك.

يعرف أخطاءك ولا يختصرك فيها.

يعرف خوفك ولا يسخر منه.

يعرف أحلامك ولا يطفئها.

يعرف ماضيك ولا يستخدمه سكيناً.

وكان موسى كذلك.

ربما لم نكن نفهم يومها أن ما نعيشه سيصير رواية. كنا نعتقد أنها أيام عادية؛ محاضرات، فول، شاي، برد، رسائل من البيت، ونكات عن الشنب. لكن الأيام العادية هي التي تصنع العمر غالباً. الأحداث الكبيرة نادرة، أما التفاصيل الصغيرة فهي التي تسكن فينا.

تفصيلة مثل موسى وهو يمد لي آخر قطعة خبز.

تفصيلة مثل صوته وهو يقول: "النفس بجي بعد الشاي".

تفصيلة مثل نظرته حين يعرف أن قلبي في عجان.

تفصيلة مثل صمته حين يكون قلبه في عراق.

وتلك التفاصيل، حين تجتمع، تصنع معنى الصداقة.

في نهاية ذلك الفصل من أيامنا، كنت قد صرت أكثر يقيناً أن موسى ليس مجرد شخصية في مرحلة الجامعة، بل شاهد على تكويني. وجوده جعلني أفهم نفسي أكثر. كان يضحك على خوفي، فيصغره. ويصدق حلمي، فيكبره. ويشاركني

الجوع، فيخففه. ويكشف زيف القوة، فيعلمني أن الإنسان لا يحتاج إلى أن يكون صلباً طوال الوقت.

وفي ليلة من ليالي الداخلية، بينما كان البرد خفيفاً هذه المرة، قال موسى من سريره:

"يا محمد".

قلت:

"نعم".

قال:

"إنت عارف عني كتير شديد".

قلت:

"وإنت عارف عني أكتر".

قال:

"طيب لو يوم اختلفنا؟"

قلت:

"ما بنختلف".

ضحك:

"دي إجابة زول ما فاهم الحياة".

قلت:

"طيب لو اختلفنا، ما بنخون المعرفة".

سكت قليلاً، ثم قال:

"دي جميلة".

قلت:

"شنو؟"

قال:

"ما بنخون المعرفة. الصديق لمن يعرف سرك، السر دا أمانة حتى لو بقيتوا بعيد".

قلت:

"بالضبط".

قال:

"أها برضو أكتبها".

ضحكت وقلت:

"إنت دايرني أكتب كل كلامك؟"

قال:

"طبعاً. عشان الأجيال تعرف إنو موسى دبال كان مدرسة".

قلت:

"مدرسة شنو؟"

قال:

"مدرسة الشنب والحكمة".

ضحكنا في الظلام، ثم سكتنا.

وفي ذلك الصمت، شعرت أن شتيلة الريد التي نبتت في جامعة الخرطوم لم تكن شتيلة عاطفة عابرة، بل شتيلة معرفة عميقة بين صديقين. معرفة لا تحتاج إلى عقود، ولا إلى شهود، ولا إلى صور كثيرة.

يكفي أن يعرفك إنسان واحد كما أنت، ويظل بجوارك.

يكفي أن يكون لك في العمر موسى واحد.

ومن كان له موسى واحد، فقد نجا من وحشة كثيرة.

الفصل السابع : حين كبرنا فجأة

لم نكن نعرف أن الإنسان يكبر أحياناً في يومٍ واحد.

كنا نظن أن الكبر يأتي بالتدريج؛ سنة وراء سنة، ومحاضرة بعد محاضرة، وامتحان بعد امتحان. لكن جامعة الخرطوم علمتنا أن هناك لحظاتٍ تقف أمامك فجأة، تضع يدها على كتفك، وتقول لك: انتهى زمن اللعب الخفيف، ادخل إلى الحياة.

في بداية أيامنا، كانت الجامعة بالنسبة إلينا مغامرة كبيرة. نضحك من الجوع، نسخر من البرد، نمشي إلى أدروب كأننا ذاهبون إلى وليمة، ونرى شارع النيل

كأنه ملكنا الخاص. لكن كلما تقدمت السنوات، بدأ ظل المستقبل يقترب. صار السؤال الذي كنا نضحك منه في أول الطريق يطرق الباب بجدية:

"بعد التخرج حنعمل شنو؟"

كان هذا السؤال قاسياً، لأنه لا ينتظر إجابة شاعرية. لا يكفي أن تقول: سأكون عظيماً. الحياة تريد عنواناً، وظيفة، راتباً، مسؤولية، وقدرة على أن ترفع سماعة الهاتف وتقول لأهلك بثقة: "الحمد لله، الأمور تمام".

لكن الأمور لم تكن دائماً تمام.

في تلك الفترة، بدأ القلق يكبر داخلنا مثل شجرة لا نريد الاعتراف بها. كنا نذهب إلى المحاضرات، لكن أذهاننا تسافر أبعد من القاعة. نرى أنفسنا بعد الجامعة: واحداً في مكتب، آخر في صحيفة، ثالثاً في بلاد بعيدة، رابعاً يعود إلى قريته، وخامساً تبتلعه شوارع الخرطوم قبل أن يجد لنفسه مكاناً.

وذات مساء في أدروب، جلس موسى أمام صحن الفول صامتاً. كان صمته هذه المرة مختلفاً؛ ليس صمت الريد، ولا صمت الشوق، ولا صمت نتيجة امتحان. كان صمت رجلٍ يرى الطريق أمامه طويلاً ولا يعرف أين يضع قدمه الأولى.

قلت له:

"مالك يا موسى؟ الفول قدامك وما في حركة. دا مؤشر خطير".

ابتسم ابتسامة صغيرة وقال:

"يا محمد، الفول الليلة ما قادر يحل الموضوع".

قلت:

"الموضوع شنو؟"

قال:

"الحياة".

لم أضحك. لأنني كنت أعرف أن الكلمة خرجت من مكان عميق.

قال وهو يحرّك الملعقة في الصحن:

"زمان كنا نقول بعد نتخرج الدنيا بتفتح. هسع قربنا نتخرج، والدنيا شكلها بتسألنا: إنتو منو؟"

قلت له:

"طبيعي نخاف".

قال:

"الخوف ما المشكلة. المشكلة إنك تكون شايل أمل ناس كتار، وما عارف حتوديهو وين".

كان موسى يتحدث عن أهله، عن أمه، عن قرية عراق، عن كل العيون التي ودعته وهو ذاهب إلى الجامعة كأنها ترسل معه أمنياتها. وكنت أفهمه، لأنني أحمل عجان في داخلي بالطريقة نفسها. لم يكن نجاحنا شخصياً فقط. كان نجاحاً لأمهات انتظرن، وآباء تعبوا، وإخوة صغار قالوا في سرهم: أخونا في جامعة الخرطوم.

وجامعة الخرطوم، رغم عظمتها، لا تحميك من سؤال الرزق.

قلت له:

"نحن حنحاول يا موسى".

قال:

"عارف. لكن أحياناً المحاولة براها بتتعب".

قلت:

"إنت ذاتك القلت لي: أهلك رسلوك عشان تحاول".

نظر إليّ، ثم ضحك بخفة:

"بقيت ترد لي كلامي؟"

قلت:

"الدين واجب السداد".

قال:

"أها سدد بي شاي كمان".

طلبنا الشاي، وتركنا الفول يبرد قليلاً. لم يكن الجوع غائباً، لكن القلق كان أقوى منه. وقلق المستقبل إذا حضر، جعل اللقمة ثقيلة حتى في فم موسى دبال.

في تلك الأيام، تغير إيقاع الجامعة. الطلاب الذين كانوا يملأون الكافتيريات بالضحك صاروا يتحدثون عن السير الذاتية، والخدمة الوطنية، والوظائف،

والسفر، والوساطات، والصحف، والمنظمات، والوزارات، والفرص التي تأتي ولا تأتي.

أما أنا، فكنت مشدوداً إلى الكتابة والإعلام. أشعر أن قدري سيكون في الكلمات، في الصحافة، في الحكي، في حمل القصص من أفواه الناس إلى الورق. لكن الطريق لم يكن واضحاً. الكتابة حلم جميل، لكنها لا تعدك بسهولة بلقمة ثابتة. كنت أقول لنفسي: سأكتب. ثم يسألني الواقع: وماذا بعد الكتابة؟

موسى كان يعرف هذا الصراع داخلي.

قال لي مرة ونحن نمشي قرب كلية الآداب:

"يا محمد، إنت حتمشي في طريق الكتابة حتى لو الطريق دا تعبك".

قلت له:

"واضح كدا؟"

قال:

"واضح زي شنبه".

قلت:

“شنبك ولا شنبه؟”

قال:

“ما تغير الموضوع. إنت عندك مشكلة”.

قلت:

“شنو هي؟”

قال:

“إنك بتحب الكلام أكتر من الأمان”.

سكتُّ.

كانت الجملة صحيحة أكثر مما أحب. كنت أريد الأمان مثل أي إنسان، لكن شيئاً داخلي كان يجرني إلى الكتابة، إلى التعب الجميل، إلى أن أعيش داخل الجملة حتى لو ضاق الخارج.

قلت له:

“والحل؟”

قال:

"ما في حل. في ناس حياتهم بتختارهم قبل ما يختاروها".

ثم ابتسم:

"لكن برضو فتش ليك شغل. الإلهام ما بدفع حق الفول".

ضحكت. هذه هي طريقة موسى دائماً؛ يرفعك إلى الحكمة، ثم يعيدك إلى صحن الفول حتى لا تطير كثيراً.

ومع اقتراب نهاية العام، بدأت الجامعة تبدو أكثر حناناً وأكثر قسوة في الوقت نفسه. الأشجار التي تعودنا المرور تحتها صارت تبدو كأنها تودعنا. القاعات التي كنا نتذمر منها صارت فجأة عزيزة. حتى أدروب، بضجيجه ورائحة الشاي والفول، صار يحمل نكهة الفراق قبل أن يحدث.

قلت لموسى ذات يوم:

"غريب، الحاجات البنتعب منها بنشتاق ليها قبل ما نطلع منها".

قال:

"دي مشكلة الإنسان. ما بعرف قيمة الحاجة إلا لمن تبدأ تمشي".

قلت:

"إنت حتشتاق للداخلية؟"

قال:

"للداخلية؟ مستحيل".

ثم سكت قليلاً وأضاف:

"لكن يمكن أشتاق للناس الكانو فيها".

قلت:

"والبرد؟"

قال:

"البرد دا لو اشتقت ليهو ودوني دكتور".

ضحكنا، لكنني كنت أعرف أنه سيشتاق حتى للبرد. ليس لأنه جميل، بل لأنه صار جزءاً من الحكاية. وبعض الأشياء المؤلمة، حين تمضي، تتحول إلى علامة على أننا كنا هناك، أننا عشنا، تحملنا، ونجونا.

في تلك الفترة، بدأت الصداقات تتعرض لاختبار خفي. بعض الناس يبتعدون لأنهم مشغولون، وبعضهم يقتربون لأنهم خائفون من النهاية، وبعضهم يظهر معدنهم الحقيقي حين تبدأ المصالح والفرص والطرق المختلفة.

أما أنا وموسى، فبقينا كما كنا، لكن مع وعي أكبر بأن الزمن لا ينتظرنا.

لم نعد نذهب إلى توحة فقط للضحك، بل لنحفظ ما تبقى. نجلس أمام النيل وكأننا نخزن المشهد في ذاكرتنا: صوت الماء، حركة الشاي، ضحكة توحة، ظل الأشجار، وجه الخرطوم ليلاً، وملامحنا نحن قبل أن تغيرنا الحياة.

ذات ليلة، قال موسى وهو ينظر إلى النيل:

"يا محمد، تتخيل بعد عشر سنين نكون وين؟"

قلت:

"الله أعلم".

قال:

"يمكن إنت تبقى كاتب كبير".

قلت:

"وإنت؟"

قال:

"أنا؟ يمكن أبقى وزير شؤون الشنب".

ضحكت.

قال:

"لا جد. ما عارف. مرات بحس عندي طاقة، لكن ما عارف أوديها وين".

قلت:

"الطاقة بتلقى طريقها".

قال:

"لو ما لقت؟"

قلت:

"نحفر ليها طريق".

هز رأسه وقال:

"كلام جميل. لكن الحفر دا محتاج أدوات".

قلت:

"أول أداة الصبر".

قال:

"والتانية؟"

قلت:

"الصديق البذكرك بنفسك".

نظر إليّ ثم قال:

"أها دي عندنا منها".

لم نكن نملك كثيراً، لكننا كنا نملك هذا. نملك شخصاً إذا ضعت قليلاً، أعادك إلى الطريق بكلمة أو ضحكة أو كباية شاي. وهذا ليس قليلاً أبداً.

ومع اقتراب الامتحانات النهائية، صار الجو أكثر توتراً. المكتبة مزدحمة، القاعات مكتظة، الوجوه شاحبة، والطلاب يحملون أوراقاً كثيرة كأنهم يحملون مصائرهم لا مذكراتهم.

كان موسى يحاول أن يبدو هادئاً، لكنه كان يراجع بجدية. يضع الورق أمامه، يمسك القلم، ثم بعد دقائق يقول:

"يا محمد، المخ دا عاوز ليهو زيت".

أقول:

"زيت فول؟"

يقول:

"أي زيت. المهم يتحرك".

كنا نذاكر معاً أحياناً. أنا أقرأ بصوت منخفض، وهو يضع خطوطاً تحت الجمل المهمة بطريقة تجعل الصفحة كلها مهمة. أقول له:

"يا موسى، لو خططت تحت كل الكتاب، الخط فقد قيمتو".

يقول:

"أنا ديمقراطي. ما بظلم معلومة".

وفي الليالي التي تسبق الامتحان، كانت الداخلية تتحول إلى معسكر. لا نوم حقيقي، لا ضحك كامل، لا أحاديث طويلة. فقط أوراق، قلق، شاي، وأدعية الأمهات التي نحاول أن نتذكرها واحدة واحدة.

في ليلة امتحان مهم، رأيت موسى شارد الذهن. قلت له:

"راجع".

قال:

"راجعت".

قلت:

"مالك؟"

قال:

"أفكر في بعد الامتحان".

قلت:

"بعد الامتحان نرتاح".

قال:

"لا، بعد الجامعة".

كانت هذه هي المشكلة. نحن كنا نذاكر مادة، لكنه كان يفكر في الحياة كلها.

قلت له:

"يا موسى، ما تذاكر المستقبل الليلة. ذاكر المادة بس".

ابتسم وقال:

"المستقبل داخل معانا الامتحان بدون استئذان".

كان محقاً. في آخر سنوات الجامعة، يصبح كل امتحان أكثر من امتحان. يصير سؤالاً عن قدرتك على العبور، عن حقك في الفرح، عن وعدك لأهلك، وعن صورتك أمام نفسك.

دخلنا الامتحانات، وخرجنا منها واحداً بعد آخر، كأننا نعبر جسوراً ضيقة فوق نهر عميق. بعد آخر امتحان، لم نفرح فوراً كما توقعنا. وقفنا خارج القاعة، ننظر إلى بعضنا في دهشة. انتهى شيء كبير، لكننا لم نعرف كيف نحتفل به.

قال موسى:

"أها، كدا خلاص؟"

قلت:

"خلاص".

قال:

"غريبة. كنت متخيل النهاية حيكون عندها صوت أعلى".

قلت:

"بعض النهايات بتيجي هادية".

قال:

"لكن جوة الزول بتعمل دوشة".

مشينا إلى أدروب. كان لا بد أن نذهب إلى هناك. المكان الذي شهد جوعنا وضحكنا وقلقنا يجب أن يشهد خروجنا من آخر امتحان. طلبنا فتة فول وشاي، وجلسنا صامتين أول الأمر.

ثم قال موسى:

"يا محمد، نحن كبرنا؟"

قلت:

"يمكن".

قال:

"ولا بس خلصت المحاضرات؟"

قلت:

"الاتنين".

أخذ لقمة من الفول، مضغها ببطء، ثم قال:

"الفول نفسو طعمو مختلف".

قلت:

"عشان نحن مختلفين".

قال:

"لا، يمكن الشطة زيادة".

ضحكت. كان يرفض أن يترك للحزن فرصة كاملة. لكن عينيه كانتا تقولان ما لا يقوله فمه.

بعد أدروب، ذهبنا إلى شارعِ النيل. جلسنا عند توحة كعادتنا. حين رأتنا قالت:

"الليلة وشوشكم عاملة كدا ليه؟ نجحتوا ولا سقطتوا؟"

قال موسى:

"لسه ما عارفين. لكن خلصنا".

قالت وهي تصب الشاي:

"الخلاص براهو نعمة".

كانت توحة، ببساطتها، تقول أعظم جملة في ذلك اليوم.

الخلاص براهو نعمة.

نعم، كنا قد خلصنا من مرحلة، لكننا لم نصل بعد إلى الطمأنينة. كنا نقف في المسافة بين الباب الذي أغلق والباب الذي لم يفتح. وهذه أصعب المسافات.

شربنا الشاي، والنيل أمامنا يجري كأنه لا يهتم بنهاياتنا الصغيرة. لكنني كنت أشعر أن شيئاً في داخلي ينكسر ويتشكل في الوقت نفسه. لم أعد الطالب

الذي دخل الجامعة أول مرة، ولم أصر بعد الرجل الذي ينتظرني في الخارج. كنت في المنتصف، بين نسخة ونسخة.

قال موسى:

"يا محمد، وعد".

قلت:

"تاني وعد؟"

قال:

"أيوه. الوعود في الزمن دا مهمة".

قلت:

"قول".

قال:

"أي زول فينا يمشي طريق، التاني ما ينساه".

قلت:

"ما بننسى".

قال:

"والأهم، ما نخلي الحياة تخلينا ناس ما بنشبه نفسنا".

قلت:

"دي أصعب".

قال:

"عارف. عشان كدا وعد".

مد يده. صافحته.

كانت مصافحة بسيطة، لكنها شعرت كأنها توقيع بين قلبين. لم يكن معنا شاهد غير النيل، وتوحة، وكبايتين شاي. لكن أحياناً يكون النيل شاهداً يكفي.

في تلك اللحظة، تذكرت أول لقاء، وأول ضحكة، وأول صحن فول، وأول ليلة برد، وأول مرة قال فيها "الشتيلة"، وأول مرة كشف لي خوفه، وأول مرة عرف أن قلبي في عجان. رأيت السنوات كلها تمر أمامي دفعة واحدة.

قلت له:

"يا موسى، لو كتبت الرواية دي، الفصل دا بسميه حين كبرنا فجأة".

قال:

"عنوان كويس".

ثم أضاف:

"لكن ما تنسى تكتب إنو موسى كان ثابتاً في وجه الحياة".

قلت:

"ثابت كيف؟"

قال وهو يمسح على شنبه:

"ثبات الشنب في العواصف".

ضحكت حتى كادت كباية الشاي تقع من يدي.

هكذا كان موسى. حتى على حافة الفراق، يجد طريقة ليجعل القلب أخف. وهذا ربما ما جعل تلك المرحلة محتملة. لم يكن يملك حلولاً لكل شيء، لكنه كان يملك روحاً لا تستسلم بسهولة.

عدنا إلى الداخلية تلك الليلة بخطوات بطيئة. كل ركن بدا مألوفاً أكثر من اللازم. الباب، السرير، الجدار، الأصوات، حتى رائحة الغرفة. نظرت إلى المكان الذي شهد تعبنا، فشعرت بامتنان غريب. هذه الغرفة الضيقة، التي شكونا منها كثيراً، كانت تحفظ شبابنا.

قال موسى وهو ينظر حوله:

"الغرفة دي لو بتتكلم، كان قالت: الحمد لله مشوا".

قلت:

"أو قالت: ديل كانوا أولادي".

سكت موسى لحظة، ثم قال:

"يمكن".

ثم جلس على سريره، وبدأ يرتب بعض أوراقه. لم يكن الترتيب ضرورياً في تلك اللحظة، لكنه كان يحاول أن يفعل شيئاً بيديه حتى لا يترك قلبه يفعل كل شيء.

قلت له:

"حاسس بشنو؟"

قال:

"زي زول واقف في محطة، والقطار قرب، لكن ما عارف حيركب وين".

قلت:

"كلنا كدا".

قال:

"الفرق إنو بعض الناس عندهم تذاكر جاهزة".

قلت:

"ونحن؟"

قال:

"نحن حنفاوض الكمساري".

ضحكنا.

ثم أطفأنا النور.

في الظلام، قال موسى:

“يا محمد”.

قلت:

“نعم”.

قال:

“مهما حصل، الأيام دي ما كانت ساكت”.

قلت:

“ما كانت ساكت أبداً”.

قال:

“دي كانت بتربينا”.

لم أرد. لم أحتج إلى الرد.

كان محقاً.

جامعة الخرطوم لم تكن تدرسنا فقط، كانت تربينا. أدروب ربّانا على المشاركة. الداخلية ربّتنا على الصبر. توحة ربّتنا على البساطة. شارع النيل ربّانا على التأمل. وموسى ربّاني على معنى الصداقة التي لا تفرط فيك حين يكبر الطريق.

وفي تلك الليلة، لم أنم سريعاً. ظللت أسمع تنفس الغرفة، وأفكر في الغد. كنت أعرف أن الحياة ستأخذنا من هذا المكان، وأننا سندخل طرقاً لا نعرفها، وأن الضحك لن يبقى سهلاً دائماً، وأن الفول لن يكون دائماً كافياً لحل المسائل.

لكنني كنت أعرف أيضاً أن شيئاً قد ثبت في داخلي.

شتيلة الريد التي نبتت في جامعة الخرطوم لم تعد شتيلة صغيرة. صارت جذراً.

والجذر، حتى لو غادر التراب، يحمل ذاكرة الماء.

الفصل الثامن : بعد التخرج... حين افترقت الطرق

بعد التخرج، لا تنتهي الجامعة فجأة كما يظن الناس. تظل تمشي معك في الطرقات، وتظهر لك في أصوات بعيدة، وفي رائحة شاي عابر، وفي طالب يحمل كتبه على عجل، وفي بوابة قديمة تشبه بوابة القلب.

غادرنا جامعة الخرطوم، لكن جامعة الخرطوم لم تغادرنا.

في الأيام الأولى بعد الخروج، كان هناك فراغ غريب. لم تعد هناك محاضرة نلحقها، ولا قاعة نخاف من تأخيرها، ولا كافتيريا أدروب نذهب إليها بلا موعد، ولا داخلية نرجع إليها آخر الليل، ولا شارع نيل نرتب عنده فوضى الروح. أصبح الوقت واسعاً بطريقة مربكة، كأن الحياة قالت لنا فجأة:

"أها، اتفضلوا... وروني حتعملوا شنو".

وكان هذا أصعب امتحان.

الامتحانات القديمة كانت لها أوراق وأسئلة وزمن محدد. أما امتحان الحياة، فلا تعرف متى يبدأ، ولا متى ينتهي، ولا من الذي يصحح الإجابات.

موسى كان يحاول أن يبدو ثابتاً. كان يقول:

"يا محمد، نحن اتخرجنا من جامعة الخرطوم، ما من روضة. بنلقى طريق".

لكنني كنت أرى القلق خلف عينيه. كان يحمل داخله عراق كلها؛ أمه، أهله، القرية، التوقعات، والناس الذين سيقولون حين يعود: "أها يا موسى، عملت شنو؟"

وأنا كنت أحمل عجان بالطريقة نفسها. كان في داخلي صوت القرية، وصوت أمي، وصوت الطريق الذي خرجت منه، وصوت الكتابة التي كانت تطالبني بأن أمشي نحوها مهما كان الطريق وعراً.

في تلك الفترة، كنا نلتقي أقل من قبل. لم يكن ذلك برغبتنا. الحياة بدأت تمد يدها بيننا، تفرق الوقت، وتبعثر الخطوات. كل واحد صار يجري في اتجاه: أوراق، شهادات، بحث عن فرصة، زيارات، مواعيد، وانتظار طويل أمام أبواب لا تفتح بسهولة.

كنا نلتقي أحياناً في الخرطوم، في مكان قريب من الجامعة، أو نمر على أدروب كمن يزور بيتاً قديماً. لكن الجلسة لم تعد مثل قبل. في أيام الدراسة كنا نجلس ونشعر أن الوقت ملكنا، أما بعد التخرج، صار الوقت يجلس معنا كضيف ثقيل، يذكرنا دائماً

الفصل التاسع : ما بقي من موسى

تمر السنوات أحياناً كأنها ريح عابرة، لا تشعر بها وهي تمضي، ثم تلتفت فجأة فتجد أن وجوهاً كثيرة ابتعدت، وأماكن كثيرة تغيرت، وأشياء كنت تظنها ثابتة صارت جزءاً من حكاية قديمة.

لكن بعض الناس لا يأخذهم الزمن كاملاً.

يبقى منهم صوت.

ضحكة.

جملة.

طريقة في المشي.

أو شنب كبير، كلما تذكرته ضحكت من قلبك، ثم سكتّ لأن الضحكة حملت معها وجع الحنين.

موسى أحمد محمد النور دبال لم يبقَ في ذاكرتي كشخصٍ عرفته في جامعة الخرطوم فقط. بقي كمرحلة كاملة. كلما ذكرته، لم أرَ وجهه وحده، بل رأيت الجامعة كلها: أدروب، مجمع الوسط، الداخلية، شارع النيل، توحة، الفول،

البرد، المحاضرات، القلق، الضحك، والليالي التي كنا نظنها عادية فإذا بها تصبح أجمل ما في العمر.

بعد التخرج، حاولت الحياة أن تعيد ترتيبنا على طريقتها. منحتنا بعض ما نريد، وأخذت بعض ما نحب، ووضعتنا أمام طرق لم نكن نعرفها ونحن نجلس عند النيل نحلم ببساطة. دخلنا في زحام العمل، والبحث عن الرزق، ومطالب الأهل، وأسئلة المجتمع، وخيبات صغيرة، وانتصارات أصغر، وأحلام تؤجل نفسها من عام إلى عام.

وفي وسط كل ذلك، كان موسى يعود إليّ في اللحظات التي لا أتوقعها.

أحياناً أسمع ضحكة رجلٍ في مكان عام، فألتفت ظاناً أنه هو.

أحياناً أرى طالباً بشنب كثيف يمشي بثقة، فأبتسم وأقول في سري: "ده من جماعة موسى".

أحياناً أجلس أمام صحن فول، فأجد يده تمتد في الذاكرة، تضبط اللقمة بدقة، وتصوّب نحو الصحن كأنها تسدد هدفاً في نهائي كأس العالم.

وأحياناً، حين يشتد البرد، أتذكر بطانيته.

تلك البطانية التي ألقاها فوقي ذات ليلة في الداخلية، ثم ادعى أنه لا يشعر بالبرد لأن أهل عراق لديهم مناعة خاصة. كنت أعرف أنه يكذب، وكان يعرف أنني أعرف، لكننا تظاهرنا معاً بتصديق الكذبة لأنها كانت أجمل من الحقيقة. الحقيقة أنه كان يرتجف، لكنه لم يردني أن أرتجف وحدي.

وهذه هي الصداقة.

ليست الصداقة أن تقول لصديقك: أنا أحبك، كل صباح.

الصداقة أن ترتجف وتغطيه.

أن تجوع وتترك له آخر لقمة.

أن تخاف وتضحك معه حتى لا يسقط.

أن تعرف سره، ثم تحميه حتى من نفسك.

كنت كلما تقدمت في العمر، فهمت موسى أكثر. في الجامعة كنت أراه صديقاً مرحاً، صاحب نكتة، صاحب شنب عظيم، ورفيق شاي وفول. لكن بعد السنوات، أدركت أن موسى كان أكبر من ذلك. كان درساً في الوفاء، ومرآةً

لمرحلة، ودليلاً على أن البساطة لا تعني السطحية، وأن الضحك قد يكون أعمق أشكال المقاومة.

كان موسى يعرف كيف يقاوم.

يقاوم الجوع بالنكتة.

والبرد بالضحك.

والخوف بالشاي.

والحنين بذكر أمه.

والغربة بقول: "نحن أولاد قرى، لكن الجامعة ما حتبلعنا".

وكم كانت جملته تلك صادقة. الجامعة لم تبلعنا، لكنها غيرتنا. علمتنا أن الريف ليس ضعفاً، بل أصل. وأن المدينة ليست عدواً، لكنها امتحان. وأن الإنسان يمكن أن يدخل مكاناً كبيراً مثل جامعة الخرطوم دون أن يترك قريته عند الباب.

كنت أنا أحمل عجان في داخلي، وكان موسى يحمل عراق. وفي جامعة الخرطوم، لم تتقابل قريتان فقط، بل تقابلت ذاكرتان. كان كل واحد منا يرى في الآخر شيئاً من نفسه؛ الخوف نفسه، الأمل نفسه، الحنين نفسه، والشعور نفسه بأننا

جئنا من أرض بعيدة لنثبت أن أبناء القرى قادرون على الوقوف في قلب المدينة دون أن تنحني أرواحهم.

بعد سنوات، عدت مرة إلى محيط الجامعة. لم تكن العودة مرتبة. مررت بالقرب منها، فشدني شيء لا أعرفه. كأن المكان ناداني باسمي القديم. دخلت من جهة أعرفها، ومشيت ببطء. تغيرت أشياء، وبقيت أشياء. بعض الوجوه اختفت، وجاءت وجوه جديدة، لكن الأشجار كانت لا تزال واقفة كأنها حراس ذاكرة.

وقفت قرب مكان كنا نجلس فيه أنا وموسى.

لم يكن هناك أحد يعرف أن هذا المكان شهد ضحكاتنا، وخوفنا، وكلامنا عن المستقبل. الطلاب الجدد كانوا يمرون مستعجلين، يحملون كتبهم وهواتفهم وأحلامهم، لا يعرفون أن تحت هذه الأشجار حكايات لا تقل أهمية عن المحاضرات.

قلت في سري:

"يا موسى، شوف أولاد الجامعة".

كأنني كنت أنتظر أن يرد:

"ديل لسه ما شافوا برد الداخلية".

ابتسمت وحدي.

ثم مشيت إلى ناحية أدروب، أو ما بقي من أدروب في الذاكرة. لا يهم إن تغير المكان أو تبدلت التفاصيل، فالأماكن الحقيقية لا توجد في الجغرافيا وحدها، بل في الوجدان. أدروب الذي أعرفه قد لا يكون هو نفسه الآن، لكن أدروب الذي في داخلي لا يزال كما كان: طاولة، شاي، فول، ضحكة موسى، وجملته الخالدة:

"النفس بجي بعد الشاي".

جلست قليلاً، وتخيلته أمامي.

قلت له في خيالي:

"يا موسى، كتبت عنك".

فقال وهو يمسح على شنبه:

"أها، كتبت الحقيقة ولا خنت التاريخ؟"

قلت:

"كتبت ما استطعت".

قال:

"والشنب؟"

قلت:

"حاضر بقوة".

قال:

"تمام. كدا الرواية مضمونة".

ضحكت. ثم وجدت عيني تلمع. لا أدري هل كان ذلك من الضحك أم من الحنين. وربما لا فرق كبير بينهما حين يتعلق الأمر بالأصدقاء القدامى.

في تلك اللحظة، فهمت أن الكتابة ليست فقط استعادة لما مضى، بل وفاء لمن مضوا معنا في الطريق. حين نكتب عن شخصٍ أحببناه، لا نعيده إلى الزمن، لكننا نحميه من النسيان. نضعه في مكانٍ آمن، بين الكلمات، حيث لا تستطيع الأيام أن تمحوه بسهولة.

وموسى يستحق أن يُحمى من النسيان.

ليس لأنه كان بطلاً خارقاً، ولا لأنه فعل شيئاً تهتز له الدنيا، بل لأنه كان إنساناً حقيقياً. والناس الحقيقيون صاروا نادرين. كان صادقاً في فرحه، صادقاً في خوفه، صادقاً في جوعه، صادقاً في صداقته. وإذا ضحك، ضحك كله. وإذا حزن، حاول أن يخفي حزنه حتى لا يثقل على الناس. وإذا أحب، أحب بخجل. وإذا صاحب، صاحب بأمانة.

أكثر ما بقي من موسى ليس النكتة، رغم أن نكاته لا تنسى.

وليس الشنب، رغم أنه علامة تاريخية قائمة بذاتها.

ولا حتى مواقفه الكثيرة.

أكثر ما بقي منه هو إحساس الأمان.

ذلك الإحساس النادر بأن هناك شخصاً يعرفك دون أن يحاكمك. يعرف ضعفك ولا يستغله. يعرف أخطاءك ولا يختصرك فيها. يعرف أحلامك ولا يسخر منها. يعرف أنك قد تكون أقل مما تريد، لكنه يراك كما يمكن أن تكون، لا كما أنت فقط.

كان موسى يراني كاتباً قبل أن أصدق ذلك تماماً.

كان يقول:

"أكتب عن الحاجات البنعرفها".

ولم أفهم يومها أن هذه النصيحة قد تكون منهجاً كاملاً في الأدب والحياة.

اكتب عن الأشياء التي تعرفها: القرية، الجامعة، الشاي، الفول، البرد، الأمهات، الصحبة، الخوف، والضحك. لا تحتقر التفاصيل الصغيرة، فهي التي تمنح الحياة طعمها. لا تبحث عن البطولة بعيداً، فقد تكون البطولة في طالبٍ يضحك رغم أنه لا يملك حق العشاء.

وهذا ما أحاول فعله الآن.

أكتب عن الأشياء التي عرفناها.

عن عجان وعراق.

عن جامعة الخرطوم حين كانت عالماً يربينا.

عن أدروب، حيث كنا نفلس بكرامة.

عن توحة، التي كانت تسامح ديون الشاي كأنها تعرف أن الطلاب لا يملكون غير الأمل.

عن شارع النيل، الذي كان يسمع أسرارنا ولا يفضحها.

عن الداخلية، حيث تعلمنا أن البرد لا يهزم من يجد صديقاً.

وعن موسى، الذي صار في ذاكرتي مثل شجرة ظل؛ كلما تعبت من شمس الحياة، جلست تحتها قليلاً.

وذات مساء، وأنا أراجع أوراق هذه الرواية، توقفت عند عنوانها: شتيلة ريد في جامعة الخرطوم.

سألت نفسي: هل الريد هنا هو الحب؟ أم الصداقة؟ أم الحنين؟ أم كل ذلك؟

ثم تذكرت موسى وهو يقول:

"الريد الحقيقي يخليك أحسن".

نعم. هذه هي الإجابة.

الريد في هذه الرواية ليس قصة عاطفية فقط. هو كل محبة جعلتنا أفضل. محبة الصديق الذي آمن بنا. محبة الأم التي دعت لنا من بعيد. محبة القرية التي حملناها إلى المدينة. محبة الجامعة التي قست علينا وربتنا. محبة الكلمة التي ظلت تطاردني حتى كتبت.

كل ذلك كان شتيلة.

نبتت صغيرة.

وسقيناها بالشاي، والدمع، والضحك، والصبر.

ثم كبرت.

ولم يكن ضرورياً أن يراها الناس وهي تكبر. بعض الأشجار تنمو في الداخل. لا ظل لها في الشارِع، لكنها تظلك من داخلك.

موسى كان من تلك الأشجار.

ربما فرقتنا الحياة، وربما لم نعد نمشي كل ليلة إلى توحة، وربما صار لكل منا طريقه ومشاغله وأحماله. لكنني كلما عدت إلى تلك السنوات، وجدته هناك. جالساً في مكانه، يضحك، يمسح على شنبه، ويقول:

"يا محمد، ما تكبر الموضوِع. أمشِ أكتب".

فأكتب.

أكتب لأن بعض الصداقات لا يكفي أن نتذكرها وحدنا. يجب أن نعطيها لغة. يجب أن نقول للناس إن الحياة، رغم قسوتها، تمنحنا أحياناً رفيقاً يجعل الطريق

أخف. رفيقاً لا يملك مالاً كثيراً، لكنه يملك قلباً واسعاً. رفيقاً لا يحل لك كل المشكلات، لكنه يجلس معك حتى لا تواجهها وحدك.

وفي نهاية هذا الفصل، لا أستطيع أن أقول إن موسى بقي في الماضي.

لا.

الماضي هو الذي بقي فيه شيء من موسى.

أما موسى الحقيقي، فقد دخل في تكويني. صار جزءاً من طريقتي في فهم الصداقة، وفي قراءة الوجوه، وفي احترام الناس البسطاء، وفي التقاط الحكايات من الأماكن العادية.

كلما كتبت عن إنسانٍ يضحك وفي داخله وجع، كان فيه شيء من موسى.

كلما كتبت عن طالبٍ فقير يحلم بعناد، كان فيه شيء من موسى.

كلما كتبت عن صديقٍ يحمي سر صديقه، كان فيه شيء من موسى.

وكلما كتبت عن شايٍ في ليل الخرطوم، ظهر موسى من بخار الكباية، وقال:

"تقيل يا توحة. الشنب دا ما بشرب خفيف".

فأضحك.

ثم أواصل الكتابة.

لأن ما بقي من موسى، أكبر من أن يسعه الصمت.

الفصل العاشر :عودة إلى النيل

لم أكن أعلم أن العودة إلى الأماكن القديمة تحتاج إلى شجاعة.

كنت أظن أن الشجاعة تُطلب فقط عند البدايات: حين تغادر القرية، حين تدخل الجامعة أول مرة، حين تقف أمام امتحان صعب، أو حين تقول لقلبك: تحمّل. لكنني عرفت بعد سنوات أن الرجوع أحياناً أصعب من الذهاب؛ لأنك لا تعود إلى المكان وحده، بل تعود إلى نفسك القديمة، إلى نسخةٍ منك تركتها هناك، ولم تكن تعرف أنها ستبقى واقفة في انتظارك.

عدت إلى شارعِ النيل ذات مساء، لا كطالبٍ يحمل قلق الغد، ولا كصاحبٍ يمشي بجوار موسى، بل كرجلٍ حملته السنوات بعيداً ثم أعادته الذاكرة إلى أول الماء.

كان النيل هناك.

يمضي كعادته، لا يلتفت كثيراً لمن يجيئون ولا لمن يغادرون. تغيرت الوجوه حوله، تبدلت الكراسي، كثرت السيارات، وتبدلت ملامح المدينة، لكن النيل ظل محتفظاً بتلك الهيبة الهادئة التي عرفناها أيام الجامعة. كأنه يقول للناس: أنتم تعبرون، وأنا أحفظ العبور.

مشيت ببطء، وأنا أبحث بعيني عن مكان توحة القديم. لم أكن متأكداً هل سأجدها، أو أجد من يذكرها، أو أجد فقط ظلاً بعيداً لكبايات الشاي التي كنا نشربها هناك. لكنني كنت أعرف أنني لا أبحث عن امرأة تبيع الشاي فقط، بل أبحث عن زمنٍ كامل كان يجلس عندها كل مساء، يضحك ويفلس ويحلم.

وقفت عند طرف الشارع، ونظرت إلى المكان.

رأيتنا.

رأيت موسى جالساً على كرسي بلاستيكي، يمسك كباية الشاي بيده، يرفعها بحذر كأنها وثيقة سرية، ثم ينفخ فيها ويقول:

"يا محمد، الشاي التقيل دا بفتح البصيرة".

ورأيت نفسي أضحك، ثم أقول له:

"البصيرة ولا الشهية؟"

فيرد بثقة:

"الاتنين. الزول الجائع ما بشوف المستقبل كويس".

ضحكت وحدي.

كان المارة يمرون من حولي، لا يعرفون أن رجلاً يقف بينهم يتحدث مع ذاكرة لا يراها أحد. وهذا ما تفعله بنا الأماكن التي أحببناها؛ تجعلنا نبدو للآخرين صامتين، بينما نحن في الداخل نخوض حواراً طويلاً مع من غابوا.

جلست قريباً من النيل. طلبت شاياً من بائعة قريبة. حين وضعت الكوب أمامي، شممت رائحته، ففتحت الذاكرة بابها دون استئذان. لم يكن الشاي هو شاي توحة، لا في الطعم ولا في اليد ولا في الزمن، لكنه كان كافياً ليعيدني إلى تلك الليالي التي كنا نأتي فيها إلى النيل مثقلين بالأسئلة، فنعود أخف قليلاً.

رفعت الكوب، وقلت في سري:

"ليك يا موسى".

كأنني كنت أشاركه الشاي من بعيد.

في تلك اللحظة، شعرت أن الصداقة الحقيقية لا تحتاج إلى حضور الجسد دائماً.

هناك أصدقاء إذا شربت الشاي وحدك حضروا. إذا رأيت النيل حضروا. إذا ضحكت من موقف قديم حضروا. وإذا كتبت جملة صادقة، وجدتهم واقفين خلفها.

موسى كان من هؤلاء.

نظرت إلى الماء، وتذكرت وعده القديم:

"لو الأيام فرقتنا، ما تنسى الليالي دي".

لم أنسَ.

كيف أنسى والليالي صارت جزءاً من لغتي؟ كيف أنسى ووجهي نفسه تغير بتأثير تلك الأيام؟ كيف أنسى وصوت موسى ما زال يصحح لي الذاكرة كلما حاولت أن تلمّع الماضي أكثر من اللازم؟

كان يقول لي دائماً:

"أكتبها زي ما عشناها. ما تلمعها شديد، وما تظلمها شديد".

وهذه أصعب وصية في الكتابة. لأن الذاكرة تحب التجميل أحياناً، وتحب الحزن أحياناً أخرى. أما الصدق فيقف بينهما، عارياً وبسيطاً، مثل طالبٍ في داخلية باردة لا يملك غير بطانية ونكتة.

لذلك حاولت أن أكتب الجامعة كما عرفناها: لا جنةً كاملة، ولا جحيماً كاملاً. كانت مكاناً قاسياً وجميلاً. منحتنا المعرفة، لكنها علمتنا الجوع. منحتنا الأصدقاء، لكنها علمتنا الفراق. منحتنا الحلم، لكنها وضعتنا أمام الخوف. منحتنا ضحكات لا تنسى، ودموعاً لم يرها أحد.

وعند النيل، في تلك العودة، شعرت أنني أخيراً فهمت لماذا بقيت تلك السنوات حية.

لم تبقَ لأنها كانت سهلة.

بل لأنها كانت صادقة.

الأيام السهلة قد تُنسى بسرعة، أما الأيام الصادقة فتظل في الروح مثل نقشٍ قديم. فيها التعب، لكن فيها المعنى. فيها الجوع، لكن فيها المشاركة. فيها الخوف، لكن فيها يد صديق على كتفك. فيها البرد، لكن فيها بطانية موسى.

أغمضت عيني للحظة، فسمعت صوته:

“يا محمد، إنت بقيت عاطفي شديد”.

قلت له في خيالي:

“والله الزمن عمل فينا عمل”.

قال:

“الزمن ما بعمل حاجة براهو. نحن البنديه فرصة”.

قلت:

“لسه بتتفلسف؟”

قال:

“دي ما فلسفة. دي خبرة شنب”.

ضحكت. ثم فتحت عيني.

كان النيل أمامي يمضي. والسماء بدأت تميل إلى عتمة هادئة. رأيت في البعيد شباباً يشبهوننا؛ يضحكون، يتجادلون، يلتقطون صوراً، يحملون أحلاماً ربما لا يعرفون ثقلها بعد. تمنيت أن يكون لكل واحد منهم موسى. صديقٌ يفهمه، يسخر منه بحب، يشاركه الشاي، ويمنحه مناعة ضد وحشة الطريق.

لأن الحياة بلا رفيق صادق تصبح طويلة أكثر مما ينبغي.

في تلك الجلسة، بدأت أراجع الرواية في رأسي من أولها: عجان وعراق، أول لقاء، أدروب، الفول، الداخلية، البرد، توحة، شتيلة الريد، تصويب الأهداف، الامتحانات، التخرج، افتراق الطرق، ثم العودة إلى النيل.

وجدت أن الحكاية، رغم بساطتها، تشبه حياتنا جميعاً.

كل إنسان له جامعة ما، حتى لو لم تكن جامعة الخرطوم.

كل إنسان له أدروب؛ مكان بسيط شهد جوعه وضحكه.

كل إنسان له توحة؛ يدٌ حنونة سامحته حين لم يكن يملك ما يكفي.

كل إنسان له شارع نيل؛ مكان يذهب إليه حين تضيق الروح.

وكل إنسان، إن كان محظوظاً، له موسى.

ليس شرطاً أن يكون اسمه موسى، ولا أن يكون من عراق، ولا أن يكون صاحب شنب كبير، لكن لا بد أن يكون هناك شخص واحد على الأقل يعرفك من الداخل، ويصدقك حين تكذب على الناس بعبارة: "أنا بخير".

هذا هو لب الرواية.

ليست حكاية صديقين فقط، بل حكاية ذلك النوع من المحبة الذي لا يطلب إعلاناً. محبة تنمو بصمت، مثل شتيلة ريد في أرض جامعة قديمة. تسقيها الأيام بالتجارب، وتحرسها النكات، وتدفئها الذكريات، ثم تكتشف بعد سنوات أنها صارت شجرة كبيرة في داخلك.

شربت آخر رشفة من الشاي. كان قد برد قليلاً، لكنني لم أنزعج. قلت في نفسي إن الشاي البارد أيضاً له ذاكرة، مثل الأحلام التي تأخرت، ومثل الرسائل التي لم نرسلها، ومثل الكلمات التي لم نقلها لأصدقائنا في وقتها.

كم من كلمة لم أقلها لموسى؟

كثيرة.

لم أقل له بما يكفي إنه كان سنداً.

لم أقل له إنني كنت أضحك أكثر حين يكون موجوداً.

لم أقل له إن بعض حكمته البسيطة صارت جزءاً من طريقتي في الحياة.

لم أقل له إنني تعلمت منه أن الرجولة ليست صلابة الوجه، بل طيبة الموقف.

ولم أقل له إنني كلما كتبت عن الصداقة، كنت أكتب عنه بطريقة أو بأخرى.

لكن ربما لا تحتاج الصداقة دائماً إلى كل هذا القول. ربما كان يعرف. كما كان يعرف حين يكون قلبي في عجان، ربما كان يعرف أيضاً أنه في قلبي.

نهضت من مكاني، ومشيت قليلاً بمحاذاة النيل. كان المساء يهبط بهدوء، والأضواء تبدأ في الظهور على الضفة الأخرى. شعرت أنني أودع المكان مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يكن الوداع موجعاً كما كان من قبل. ربما لأنني لم أعد أظن أن الذكرى تسكن في المكان وحده. صارت تسكن فيّ.

قبل أن أغادر، التفت إلى النيل وقلت بصوت خافت:

"حفظت السر يا نيل".

ثم ابتسمت.

فالنيل حفظ أكثر مما ظننا. حفظ خوفنا الأول، وحبنا الخجول، وضحكنا المفلس، ووعودنا الصغيرة، وأسماءنا التي لم تكن تعني للعالم شيئاً كبيراً، لكنها كانت تعني لنا كل شيء.

وفي طريق العودة، مررت قرب الجامعة. لم أدخل هذه المرة. وقفت من بعيد، ونظرت إلى مبانيها وأشجارها. بدت لي مثل أمٍ عجوز تراقب أبناءها وهم يعودون إليها من بعيد، لا تسألهم ماذا صاروا، بل تكتفي بأنهم لم ينسوا الطريق.

قلت في داخلي:

"يا جامعة الخرطوم، نحن لم نخرج منك تماماً".

فالخروج من الجامعة ليس بالبوابة.

الخروج الحقيقي لا يحدث إلا حين تنسى ما علمتك إياه الأيام.

وأنا لم أنسَ.

لم أنسَ أن الفقر قد يكون كريماً إذا تقاسمه الأصدقاء.

لم أنسَ أن البرد يهزم الجسد، لكن الرفقة تهزم البرد.

لم أنسَ أن الشاي ليس مشروباً دائماً، أحياناً يكون لغة.

لم أنسَ أن الفول قد يصبح مائدة ملوك إذا جلس حوله من تحب.

لم أنسَ أن الأمهات يرسلن الدفء من القرى البعيدة.

ولم أنسَ أن موسى دبال كان هناك؛ في قلب الحكاية، وفي قلب الجامعة، وفي قلب الصديق الذي يكتب الآن.

عندما ابتعدت، شعرت أن الفصل يكتمل. ليست نهايةً بعد، لكنها عودة ضرورية قبل الختام. فالإنسان حين يريد أن يختم حكاية، يجب أن يعود إلى المكان الذي بدأت فيه روحه تتغير.

وبالنسبة لي، كان ذلك المكان هو النيل.

هناك جلسنا شباباً لا نملك إلا الحلم.

وهناك عدت رجلاً لا يملك إلا الذاكرة.

وبين الحلم والذاكرة، نبتت الرواية.

الفصل الحادي عشر : رسائل لم تُرسل

ليست كل الرسائل تحتاج إلى ورق.

بعض الرسائل نكتبها في القلب، ونظل نحملها سنوات طويلة، نؤجل إرسالها لأننا نظن أن الوقت واسع، وأن الأصدقاء باقون، وأن الحياة ستمنحنا فرصة أخرى لنقول ما لم نقله. ثم نكتشف، بعد زمن، أن الكلام الذي لا يقال في وقته لا يموت، لكنه يتحول إلى حملٍ صامت.

بعد عودتي إلى النيل، رجعت إلى أوراقي القديمة. فتحت حقيبةً صغيرة كنت أحتفظ فيها ببقايا من زمن الجامعة: أوراق محاضرات، صور باهتة، عناوين كتبتها على عجل، قصاصات فيها أبيات شعر، وأرقام هواتف لم تعد تعمل، وورقة صغيرة مكتوب عليها بخطي المرتبك:

"موسى دبال... صديق يعرف الطريق إلى قلبك دون أن يسأل عن العنوان".

توقفت عند العبارة طويلاً.

لا أذكر متى كتبتها. ربما في ليلة من ليالي الداخلية، أو بعد جلسة عند توحة، أو بعد أن ألقى عليّ بطانيته في البرد. لكنها كانت صادقة. موسى كان يعرف الطريق إلى قلبي دون أن أسلّمه خريطة. يعرف أن عجان ليست مجرد قرية في سيرتي، بل جذرٌ في روحي. يعرف أنني حين أضحك كثيراً ربما أكون أخفي تعباً. يعرف أن الكتابة ليست هواية عندي، بل قدرٌ يتنكر أحياناً في شكل قلم.

جلست إلى الطاولة، وأخرجت ورقة بيضاء. لم أكن أنوي كتابة فصل جديد من الرواية، لكنني وجدت نفسي أكتب رسالة.

كتبت:

يا موسى،

سلامٌ عليك حيثما كنت، وسلامٌ على شنبك الذي دخل التاريخ من أوسع أبوابه دون أن يستأذن أحداً.

توقفت وابتسمت. تخيلته يقرأ الجملة، فيمسح على شنبه ويقول:

"أخيراً اعترفت بالحقيقة".

ثم واصلت:

يا صديقي، لا أدري لماذا تأخرت في كتابة هذه الرسالة. ربما لأنني كنت أظن أن الحكاية لا تزال قريبة، وأننا سنلتقي قريباً في أدروب، أو عند توحة، أو على شارع النيل، فنضحك ونستعيد كل شيء دون حاجة إلى كتابة. لكن السنوات علّمتني أن ما لا نكتبه قد يضيع، وأن الذاكرة، مهما كانت قوية، تحتاج إلى من يسندها بالكلمات.

أتذكر أول يوم رأيتك فيه؟ كنتَ تمشي بثقةٍ عجيبة، وكأنك تعرف الجامعة قبل أن تدخلها. كان شنبك سابقاً عليك بخطوتين، وكنت أنا أراقبك وأقول في سري: هذا الطالب إما قادم من سوق الأنعام، أو من حكاية ستطول.

ضحكت وأنا أكتب. كانت الذاكرة تفتح أبوابها بسهولة تلك الليلة. كأن النيل، بعد زيارتي له، أعاد ترتيب الصور داخلي.

واصلت:

لم أكن أعرف يومها أنك ستصير أقرب الناس إليّ. لم أكن أعرف أنني سأشاركك الفول والشاي والبرد والخوف، وأنك ستعرف أسراري الصغيرة، وستسمع كتاباتي الأولى، وستسخر مني حين أرتبك، وستشدني حين أميل، وستقول لي كلما تهت: "أكتب يا محمد... أكتب عن الحاجات البنعرفها".

يا موسى، كتبت. وربما تأخرت، لكنني كتبت. كتبت عن أدروب كما عرفناه، لا كما يراه العابرون. كتبت عن توحة، وعن الشاي الذي كان أحياناً أحنّ علينا من الدنيا. كتبت عن الداخلية، وعن البرد الذي كان يعضّ العظام، وعن بطانيتك التي صارت في ذاكرتي أكبر من كل أغطية العالم. كتبت عن شتيلة الريد، وعن تصويب الأهداف، وعن القلب الذي كان يخاف أن يحب لأنه لا يملك ميزانية كافية للحلم.

وكتبت عنك.

هنا سكت القلم قليلاً.

أن تكتب عن صديق حقيقي ليس سهلاً. لأنك تخاف أن تخونه بالاختصار، أو أن تظلمه بالمبالغة، أو أن تجعله شخصية أدبية أكثر مما كان إنساناً من لحم ودم.

وموسى لم يكن يحتاج إلى تلميع. كان يلمع ببساطته. كان يكفي أن تتركه يتكلم ليصير الحكي جميلاً.

أكملت:

يا موسى، كلما حاولت أن أصفك، اكتشفت أنك كنت أبسط من الوصف وأعمق منه في الوقت نفسه. كنتَ تضحك كثيراً، لكن ضحكك لم يكن خفة. كان طريقةً لحراسة القلب. كنتَ تمزح عن الشنب والفول والبرد، لكنك حين يتعب صديقك تعرف كيف تصمت، وكيف تضع كوب شاي أمامه، وكيف تمنحه حق الحزن دون أن تشعره بالضعف.

تعلمت منك أن الصداقة ليست كثرة الكلام، بل دقة الفهم. وتعلمت منك أن الإنسان يمكن أن يكون فقيراً في جيبه، غنياً في مواقفه. وتعلمت أن القرية لا تغادر أبناءها، وأن من خرج من عجان أو عراق يحمل معه تراباً لا تراه العيون، لكنه يظهر في الكلام والحياء والحنين.

توقفت مرة أخرى.

خارجِ النافذة كان الليل هادئاً. لم يكن برد الداخلية، لكنه كان يحمل برودة خفيفة جعلتني أبتسم. قلت في نفسي: "لو كان موسى هنا، لقال إن أهل عراق لا يشعرون بهذا البرد".

عدت إلى الرسالة:

أتذكر يا موسى حين قلتَ لي إن الجامعة لا تعلّمنا ما في المقرر فقط، بل تعلّمنا الجوع والصبر ومعرفة الناس؟ كنتَ محقاً. لقد نسيتُ بعض المحاضرات، وبعض أسماء الكتب، وبعض تواريخ الامتحانات، لكنني لم أنسَ وجهك وأنت تقول: "الصديق الحقيقي البعرف كل شيء عنك، ومع ذلك يفضل صاحبك".

هذه الجملة يا موسى بقيت معي. صارت ميزاناً أعرف به الناس. لم يعد يغريني الذي يصفق لي في الفرح فقط، بل الذي يستطيع أن يجلس بجواري حين أكون أقلّ مما أحب. لم يعد يدهشني الكلام الكثير، بل الموقف الصغير في وقته.

أنت لم تكن مثالياً، وأنا لم أكن كذلك. كنا طالبين نحاول أن نفهم الحياة. نخطئ، نضحك، نغضب، نصمت، نجوع، نحلم، ونظن أننا نعرف الطريق. لكن جمال تلك الأيام أنها لم تكن تدّعي الكمال. كانت حقيقية فقط. والحقيقة، مهما كانت بسيطة، تعيش أطول من الزينة.

كتبت هذه الجملة وشعرت أنها تصلح أن تكون على الغلاف الأخير للرواية.

الحقيقة تعيش أطول من الزينة.

نعم. هذا ما أريد أن تقوله الرواية. لا أريدها أن تكون حكاية مزخرفة عن شبابٍ مثاليين. أريدها أن تكون رواية عن شبابٍ حقيقيين، من قرى حقيقية، دخلوا جامعة حقيقية، وجاعوا وضحكوا وأحبوا وخافوا، ثم كبروا فجأة.

واصلت الكتابة:

يا موسى، في داخلي رسائل كثيرة لم أرسلها لك. رسالة شكر لأنك كنت هناك حين لم يكن عندي كلام. رسالة اعتذار لأنني ربما لم أقل لك بما يكفي إنك صديق نادر. رسالة ضحك لأنني كلما تذكرت سؤالك عن زمن الفعالية والجدول في يدك، أضحك كأن الأمر حدث بالأمس. ورسالة وفاء لأنني لم أنسَ الوعد: أن أكتب عن الليالي التي لا يجب أن تضيع.

أعرف أنك كنت ستقول الآن: "يا محمد، خفف العاطفة شوية، الرواية بقت تبكي." ثم تضيف: "لكن ما تشيل الكلام دا، خليه. الناس لازم تعرف إنو موسى كان مؤثر".

نعم يا موسى، كنت مؤثراً. ليس بصوتٍ عالٍ، ولا بموقفٍ واحدٍ عظيم، بل بتراكم الأشياء الصغيرة. وهذه الأشياء الصغيرة هي التي صنعتك في قلبي.

هنا وضعت القلم.

شعرت أن الرسالة لم تنتهِ، لكنها وصلت إلى موضع لا يحتاج إلى زيادة. بعض الرسائل لا تُختم بكلمة "مع السلامة"، بل تُترك مفتوحة، لأن صاحبها ما زال حاضراً فينا.

طويت الورقة، ثم لم أضعها في ظرف. لمن أرسلها؟ وإلى أي عنوان؟ هل أكتب عليها: إلى موسى أحمد محمد النور دبال، في ذاكرة جامعة الخرطوم، قرب أدروب، بجوار شاي توحة، تحت برد الداخلية؟

ابتسمت للفكرة.

لو كانت للذاكرة مكاتب بريد، لوصلت الرسالة منذ زمن.

لكنني أدركت أن الرواية كلها هي الرسالة. كل فصل منها محاولة لإرسال ما تأخر. كل مشهد فيها يحمل شيئاً كنت أريد قوله له. وكل ضحكة مكتوبة فيها اعتذار عن كل ضحكة نسيتها الأيام.

في اليوم التالي، عدت إلى الورقة وقرأت ما كتبت. شعرت أن الفصل لا يجب أن يكون رسالةً واحدة فقط، بل رسائل عديدة: رسالة إلى موسى، رسالة إلى الجامعة، رسالة إلى عجان، رسالة إلى عراق، رسالة إلى توحة، ورسالة إلى ذلك الشاب الذي كنته يوم دخلت جامعة الخرطوم مرتبكاً، حاملاً حقيبة بسيطة وقلباً ممتلئاً بالخوف والأمل.

فكتبت رسالة أخرى، لكن هذه المرة إلى نفسي القديمة.

يا محمد،

أراك الآن وأنت تدخل الجامعة لأول مرة، تظن أن الجميع أكثر ثقة منك، وأنك الوحيد الذي يحمل خوفه تحت قميصه. لا تخف كثيراً. ستتعلم. ستتعب، نعم، لكنك ستجد من يقاسمك التعب. ستجوع، لكنك ستعرف أن صحن الفول قد يصبح وليمة حين يكون حوله الأصدقاء. ستبرد، لكنك ستكتشف أن دفء الناس أقوى من البطاطين.

ستقابل رجلاً اسمه موسى. لا تستهين باللقاء الأول. بعض الذين يأتون عابرين يصبحون علامات في الطريق. سيضحك من قلقك، ويقرأ صمتك، ويؤمن

بكتابتك قبل أن تؤمن بها تماماً. حافظ عليه في قلبك، حتى لو أخذتكم الحياة في طرق مختلفة.

ولا تخجل من أصلك. لا تخجل من عجان. لا تحاول أن تخلع القرية عن روحك لتبدو ابن مدينة. ستكتشف لاحقاً أن أجمل ما فيك جاء من هناك: الحياء، الحنين، اللغة، رائحة الأرض، ووصايا الأهل.

اكتب. حتى لو لم يصفق لك أحد في البداية. اكتب لأنك إن لم تكتب، ستتعب أكثر. اكتب عن الناس الذين لا يكتب عنهم أحد. اكتب عن الذين يضحكون في الكافتيريات، وينامون في الداخليات الباردة، ويرسلون لأمهاتهم أخباراً ناقصة حتى لا يقلقن. هؤلاء هم أبطالك. لا تبحث عنهم بعيداً. هم حولك.

حين انتهيت من هذه الرسالة، شعرت بشيء من السلام. كأنني صافحت ذلك الشاب القديم وقلت له: "لم تضع كل شيء. بعض ما عشته صار كتابة".

ثم كتبت رسالة ثالثة إلى جامعة الخرطوم.

يا جامعة الخرطوم،

لم تكوني حجارة وقاعات فقط. كنتِ أمّاً قاسية وحنونة. أخذتِ منّا النوم والراحة، ومنحتِنا الوعي والرفاق. جعلتِ أبناء القرى يمشون في قلب المدينة

دون أن تنكسر أقدامهم. علمتِنا أن المعرفة لا توجد في الكتب وحدها، بل في الوجوه، في الممرات، في الشاي، في الهزائم الصغيرة، وفي الضحكات التي تنقذ الروح.

فيكِ نبتت شتيلة ريد. لم تكن شتيلة حبٍ واحد، بل شتيلة حياة كاملة. وفيكِ عرفنا أن الصداقة شهادة لا تمنحها إدارة الجامعة، لكنها أعظم من كثير من الشهادات.

لكِ منا سلام الطلاب الذين غادروكِ بأجسادهم، وبقيتِ فيهم مثل وشمٍ لا يُرى.

ثم رسالة إلى توحة:

يا توحة،

قد لا تعرفين كم كنتِ مهمة في حكايتنا. بالنسبة إليكِ، كنا طلاباً نطلب الشاي، نؤجل الحساب، ونكثر الضحك. لكن بالنسبة إلينا، كنتِ شاهدة على أعمارٍ تتشكل. كانت كباياتك الصغيرة تحمل ما لا تستطيع الكتب حمله. كنتِ تمنحيننا لحظة دفء، وتسامحين فقرنا، وتضحكين من قلقنا كأنك تعرفين أن هؤلاء الأولاد سيكبرون يوماً ويشتاقون حتى إلى ديون الشاي.

شكراً لأنكِ جعلتِ شارعِ النيل أقل وحشة.

ثم رسالة إلى عجان وعراق:

يا عجان، يا عراق،

منكما خرجنا، وإليكما كنا نعود ولو لم نركب الطريق. كنا نحملكما في كلامنا، في حيائنا، في خوفنا من خيبة الأهل، وفي إصرارنا أن ننجح لا لأنفسنا فقط، بل لكل الذين ودعونا بدعاء صادق.

في جامعة الخرطوم، لم نكن طالبين منفصلين عن جذورهما. كنا قريتين تمشيان على قدمين. وحين جلسنا في أدروب، كانت معنا طرقكما الترابية. وحين شربنا عند توحة، كان معنا دعاء أمهاتكما. وحين ارتجفنا في الداخلية، كان دفء البيوت البعيدة يسندنا من حيث لا نرى.

بعد هذه الرسائل، شعرت أن الفصل الحادي عشر اكتمل في داخلي. لم يكن فصلاً للأحداث الكبيرة، لكنه فصل الاعتراف. والرواية تحتاج إلى اعتراف قبل نهايتها. تحتاج أن تقف الشخصيات أمام ما عاشته وتقول: نعم، هذا ما حدث لنا، وهذا ما بقي منا.

في آخر الليل، جمعت الرسائل ووضعتها داخل ملف الرواية. على الصفحة الأولى كتبت:

الفصل الحادي عشر: رسائل لم تُرسل

ثم أضفت تحت العنوان:

بعض الرسائل لا تصل لأنها لم تُكتب، وبعضها يصل لأنها صارت رواية.

أغلقت الملف، لكنني لم أستطع النوم بسرعة. ظللت أفكر في موسى. في الجامعة. في النيل. في تلك الأيام التي مضت ولم تمضِ.

وفجأة سمعت صوته في الذاكرة، واضحاً كأنه جالس أمامي:

"يا محمد، بعد الرسائل دي كلها، ما تنسى الغداء. الكاتب الجائع بخرب النهاية".

ضحكت وحدي.

حتى في الذاكرة، كان موسى يعرف كيف ينقذني من الغرق في العاطفة.

ونهضت، وأنا أتمتم:

"حاضر يا دبال... النهاية لازم تكون شبعانة

الفصل الثالث عشر : الوعد الذي ظلّ واقفاً

هناك وعود نقولها في لحظة عابرة، ثم نمضي ونظن أنها ذابت في زحام الأيام.

لكن بعض الوعود لا تذوب. تظل واقفة في الداخل، صامتة، تنتظر أن نلتفت إليها. وكلما تأخرنا، ازدادت رسوخاً، كأنها شجرة لا تسألنا الإذن في النمو.

كان بيني وبين موسى أكثر من وعد.

وعد ألا ننسى الليالي.

وعد ألا نخون المعرفة.

وعد ألا تجعلنا الحياة أناساً لا نشبه أنفسنا.

لكن الوعد الأكبر كان ذلك الذي قاله لي عند النيل، ثم كرره في أكثر من موضع:

"أكتب".

لم يكن يقولها كطلبٍ عابر. كان يقولها كمن يسلّمني أمانة. كأنه يعرف أن ما عشناه لو بقي في الذاكرة وحدها، سيتعرض للتآكل. وكأنه كان يخاف أن يأتي

زمن لا يصدق فيه الناس أن طلاباً مفلسين كانوا يصنعون من صحن الفول عيداً، ومن كباية الشاي وطناً، ومن البرد حكاية، ومن الصداقة نجاة.

في البداية ظننت أن الكتابة عن تلك الأيام سهلة. فالحكايات كثيرة، والوجوه واضحة، والمشاهد جاهزة. لكنني حين حاولت، اكتشفت أن الصعوبة ليست في التذكر، بل في الوفاء. كيف تكتب عن زمنٍ أحببته دون أن تجعله أجمل مما كان؟ وكيف تكتب عن صديقٍ عزيز دون أن تحوله إلى تمثال؟ وكيف تكتب عن الفقر دون أن تجعله زينة أدبية، وعن الضحك دون أن تخفي الوجع الذي كان تحته؟

كانت وصية موسى تلاحقني:

"ما تلمعها شديد، وما تظلمها شديد".

فاخترت أن أكتبها كما عشناها.

كان الجوع موجوداً.

وكان الضحك موجوداً.

كان الخوف موجوداً.

وكانت الشجاعة موجودة، لكنها لم تكن شجاعة عالية الصوت. كانت شجاعة طلاب يمضون إلى محاضراتهم رغم أن جيوبهم فارغة. شجاعة أبناء قرى يحاولون أن يثبتوا أن الطريق من عجان وعراق يمكن أن يصل إلى قلب جامعة الخرطوم. شجاعة أمهات يودعن أبناءهن بالدعاء، ثم يخفين قلقهن خلف عبارة: "ربنا يوفقك".

في إحدى الليالي، جلست أمام أوراق الرواية. كانت الفصول قد تراكمت أمامي مثل بيوتٍ صغيرة في قرية واحدة. كل فصل يحمل رائحة مختلفة: عجان، عراق، أدروب، الداخلية، توحة، النيل، شتيلة الريد، التخرج، الرسائل، الذاكرة.

نظرت إليها وشعرت أن موسى يجلس على الكرسي المقابل، يراجع معي النص.

قال في خيالي:

"الفصل دا طويل شوية".

قلت له:

"إنت ذاتك طويل في الذاكرة".

قال:

"لكن الشنب محتاج مساحة".

قلت:

"أديتو مساحة كافية".

قال:

"كافية؟ يا محمد، التاريخ ما بتقاس بالكفاية".

ضحكت وحدي.

ثم تخيلته يقترب من الصفحات، يقرأ سطراً، يبتسم، يعترض على آخر، ويقول:

"هنا كتبتني حكيم شديد. خفف الحكمة شوية. خلي الناس تعرف إني كنت بضحك".

ثم يقرأ موضعاً آخر ويقول:

"وهنا كتبتني بهزر زيادة. برضو ما تنسى إني كنت بفكر".

وهذه كانت مشكلة الكتابة عنه. موسى لم يكن وجهاً واحداً. كان مثل الناس الحقيقيين: يضحك ويفكر، يسخر ويتألم، يحب ويخاف، يقوى ويضعف. والكتابة العادلة هي التي تترك للإنسان تعدده، لا تختصره في صفة واحدة.

كتبت في هامش الورقة:

"لا تختصر موسى في النكتة، ولا ترفعه إلى مقام الولي. اتركه إنساناً، فهذا أجمل ما فيه".

ثم توقفت عند كلمة "إنساناً."

ربما هذا ما جعل موسى باقياً. إنسانيته. لم يكن يدعي ما ليس فيه. وإذا ادعى القوة أحياناً، كان ادعاؤه مكشوفاً وجميلاً، كطفلٍ يلبس جلابية أبيه ويظن أنه صار رجلاً. وكان في ذلك الادعاء شيء من الطرافة وشيء من الحزن. فكلنا كنا ندعي القوة في تلك السنوات، لأن الحياة كانت أكبر من أعمارنا.

كنا نمشي في طرق الجامعة ونحاول أن نظهر ثابتين. لكن داخل كل واحد منا طفل قادم من بيت بعيد، يسأل نفسه: هل سأقدر؟ هل سأفرح أمي؟ هل سأجد مكاني؟ هل أنا كافٍ لهذا العالم؟

ولأننا لم نكن نستطيع قول هذه الأسئلة بصوت عالٍ دائماً، كنا نذهب إلى أدروب.

أدروب كان يعرف.

توحة كانت تعرف.

النيل كان يعرف.

وموسى كان يعرفني، كما كنت أعرفه.

في ذلك الليل، أدركت أن الوعد لم يكن مجرد كتابة عن صديق. كان كتابة عن جيل كامل من الطلاب الذين كبروا بين الأحلام والضيق، بين القرية والمدينة، بين دفتر المحاضرات وصحن الفول، بين خجل الحب وقلق المستقبل.

كتبت:

هذه الرواية ليست سيرة موسى وحده، ولا سيرة محمد وحده. إنها سيرة تلك المسافة بين طالبين وحياة كاملة.

ثم أضفت:

إنها حكاية الذين لم يكن لهم من الفخامة إلا صدقهم.

تذكرت يوم قال موسى:

"الناس العاديين غالباً ما في زول بكتبهم".

كان محقاً.

الناس العاديون يحملون العالم على أكتافهم، ثم يمرون بصمت. لا أحد يلتقط تفاصيلهم. لا أحد يكتب كيف كانوا يضحكون وهم مفلسون، كيف كانوا يخبئون خوفهم من الأمهات، كيف كانوا يرسلون رسائل قصيرة مطمئنة بينما قلوبهم مزدحمة، كيف كانوا يحلمون بكرامة بسيطة لا أكثر.

لكن الرواية تستطيع أن تفعل ذلك.

تستطيع أن تمنح الناس العاديين مقعداً في الذاكرة.

تستطيع أن تقول: هذا الطالب الذي شرب الشاي بالدين كان بطلاً بطريقته. هذه البائعة التي سامحت الحساب كانت جزءاً من بناء الروح. هذا الصديق الذي أعطى بطانيته في البرد يستحق أن يذكره الأدب. وهذه الجامعة التي قست واحتضنت تستحق أن تُكتب لا كمؤسسة فقط، بل كأمٍّ غريبة الطباع؛ تضرب أبناءها بالحياة، ثم تترك فيهم نوراً لا ينطفئ.

في الأيام التالية، صرت أعود إلى الفصول وأعيد ترتيبها. أحذف كلمة هنا، وأضيف جملة هناك. وكلما وصلت إلى مشهدٍ فيه موسى، شعرت كأنني أستأذنه.

"أكتب دي؟"

فيقول في خيالي:

"أكتب، لكن ما تفضحنا شديد".

أقول:

"دي رواية".

يقول:

"الرواية ما معناها تفتح كل الشبابيك".

وهنا كنت أضحك، ثم أفهم. نعم، حتى في الكتابة هناك حرمة. لا نكتب كل شيء. هناك أسرار تبقى بين الأصدقاء، لا لأنها خطيرة، بل لأنها مقدسة. هناك أحاديث عند النيل لا تصلح للنشر. هناك لحظات ضعف لا يجب تحويلها إلى مشاهد. هناك دمعة لصديق لا تدخل الرواية إلا إذا كان في دخولها وفاء لا فضيحة.

لذلك تركت أشياء كثيرة خارج الصفحات.

تركت بعض الصمت كما هو.

تركت بعض الوجع في مكانه.

تركت بعض الأسرار عند النيل، كما وعدناه.

فالكتابة ليست كشفاً كاملاً، بل اختيار أمين لما ينبغي أن يبقى شاهداً.

وفي مساءٍ آخر، سألت نفسي: لماذا الآن؟ لماذا أكتب هذه الرواية بعد كل هذه السنوات؟ لماذا لا أترك الذكريات في مكانها؟

جاءني الجواب هادئاً:

لأن الذاكرة وحدها لا تكفي.

الذاكرة تموت إذا لم تجد لغة.

والأصدقاء الذين أحببناهم يستحقون أن نمنحهم لغة.

ليس ليصيروا مشهورين، بل ليظلوا أحياء في المعنى. ليأتي قارئ لا يعرف موسى، فيحبه. ليقرأ عن أدروب، فيتذكر كافتيريا في جامعته. ليقرأ عن توحة، فيتذكر بائعة شاي في مدينته. ليقرأ عن عجان وعراق، فيتذكر قريته. وليقرأ عن الصداقة، فيتذكر شخصاً كان له في يومٍ من الأيام موسى الخاص به.

وهنا عرفت أن الرواية خرجت من كونها وفاءً شخصياً، وصارت رسالة أوسع.

رسالة تقول:

لا تحتقروا أيامكم البسيطة.

لا تؤجلوا الامتنان لأصدقائكم.

لا تظنوا أن الضحك في زمن الفقر شيء صغير.

لا تنسوا الذين عرفوكم حين لم تكونوا شيئاً في نظر العالم.

ولا تخونوا المعرفة.

هذه العبارة الأخيرة كانت تعود إليّ كثيراً.

"ما بنخون المعرفة".

كم هي ثقيلة وجميلة. حين يعرفك صديق في ضعفك، يصبح ما يعرفه أمانة. وحين تعرفه أنت في ضعفه، تصبح معرفتك امتحاناً لأصلك. العلاقات لا تنكسر غالباً لأن الناس لم يحبوا بعضهم، بل لأنهم خانوا ما عرفوه عن بعضهم وقت الخصام أو البعد.

أما أنا وموسى، فقد تعلمنا مبكراً أن المعرفة بين الأصدقاء ليست سلاحاً، بل عهد.

حتى لو تفرقت الطرق.

حتى لو تغيرت الحياة.

حتى لو صرنا لا نلتقي إلا في الذاكرة.

يبقى السر سراً.

وتبقى العشرة محترمة.

ويبقى ما عُرف بالمحبة محفوظاً بالمحبة.

في نهاية تلك الليلة، كتبت صفحة أخيرة لهذا الفصل، كأنها خطاب إلى موسى وإلى نفسي وإلى كل من سيقرأ:

لم أكتب هذه الرواية لأن الزمن كان مثالياً. كتبته لأنه كان حقيقياً. ولم أكتب عن موسى لأنه كان بلا عيوب، بل لأنه كان صادقاً حتى في عيوبه. ولم أكتب عن جامعة الخرطوم لأنها كانت سهلة، بل لأنها كانت مدرسةً للروح قبل العقل.

كتبت لأن وعداً قديماً ظل واقفاً في داخلي، وكلما تأخرت عنه، ازداد وضوحاً. كتبت لأن صديقاً قال لي ذات مساء: "أكتب عن الناس البفضلوا." وها أنا أفعل.

بعض الوعود لا تحتاج إلى شاهد، لأن القلب نفسه شاهد.

وضعت القلم، وشعرت أن الوعد بدأ يهدأ.

ليس لأنه انتهى تماماً، بل لأنه وجد طريقه إلى الورق.

وفي داخلي، رأيت موسى ينهض من كرسيه الخيالي، يعدل قميصه، يمسح على شنبه، ثم يقول:

"كويس يا محمد. كدا الوعد دخل الأرشيف".

قلت له:

"الأرشيف؟"

قال:

"طبعاً. أرشيف الريد".

ثم مشى ضاحكاً باتجاه النيل، وأنا أعرف أنه سيعود في الفصل الأخير.

لأن الحكاية التي تبدأ بصديق، لا تُختم إلا به.

الفصل الرابع عشر :خاتمة الشاي الأخير

في كل رواية، لا بد أن يأتي وقتٌ يجلس فيه الكاتب أمام شخصياته ويودعها. ليس لأنها تموت، ولا لأنها تغادر تماماً، بل لأن الصفحة الأخيرة تحتاج إلى شجاعة تشبه شجاعة البداية. أن تبدأ الحكاية أمرٌ صعب، لكن أن تختمها دون أن تخونها أصعب.

جلست أمام أوراق شتيلة ريد في جامعة الخرطوم كما يجلس الإنسان أمام ألبوم قديم. كل فصل كان صورة، وكل صورة كانت تفتح باباً. رأيت عجان وهي تلوّح من بعيد، ورأيت عراق تمشي في خطى موسى، ورأيت جامعة الخرطوم تقف ببواباتها وأشجارها كأمٍّ تعرف أن أبناءها سيعودون إليها ولو في الذاكرة.

رأيت أدروب، ورائحة الفول، وكبايات الشاي، والطلاب الذين يتجادلون كأن العالم ينتظر قراراتهم. رأيت الداخلية وبردها الغارص، والبطاطين القديمة، والأسرة الحديدية، والضحكات التي كانت تتسرب من تحت الأغطية. رأيت شارع النيل، وتوحة، والنيل الذي حفظ أسرارنا أكثر مما حفظناها نحن.

ورأيت موسى.

كان جالساً في قلب الرواية، لا على هامشها. يضحك أحياناً، يسكت أحياناً، يمسح على شنبه دائماً، ويذكرني كلما ذهبت بعيداً أن الحكاية يجب أن تبقى قريبة من الأرض، من الناس، من الفول والشاي والبرد والوفاء.

في ذلك المساء، قررت أن أذهب مرة أخرى إلى النيل. لا أدري لماذا شعرت أن الخاتمة لا تُكتب في الغرفة. بعض النصوص تحتاج إلى هواء، وبعض الوداع يحتاج إلى ماء. أخذت دفتري، ومشيت إلى شارع النيل كمن يمشي إلى موعد قديم تأخر عنه كثيراً.

كان المساء هادئاً، والهواء يحمل شيئاً من رطوبة النهر. جلست في مكان قريب من حيث كنا نجلس. طلبت شاياً، وحين وصل، وضعته أمامي ولم أشرب فوراً. تركت البخار يصعد قليلاً، كأنني أعطي للذاكرة فرصة أن تحضر.

قلت في داخلي:

"يا موسى، دي آخر كباية في الرواية".

فجاءني صوته كما اعتدت في الذاكرة:

"آخر كباية؟ يا محمد، الشاي ما عندو نهاية".

ابتسمت.

كان محقاً. الشاي لا ينتهي، كما لا تنتهي بعض الحكايات. نحن فقط نغلق الدفتر، لكن الرائحة تبقى في الأصابع.

فتحت الدفتر وكتبت:

لم تكن هذه الرواية عن الماضي وحده. كانت عن الطريقة التي يظل بها الماضي حياً فينا. عن الأيام التي نظن أنها مضت، فإذا بها تعود في جملة، أو رائحة، أو وجه، أو كوب شاي.

ثم توقفت.

رأيت شابين يجلسان قريباً مني، يضحكان بصوت عالٍ، وبينهما كوبان من الشاي وطبق صغير. كان أحدهما يتحدث بحماس، والآخر يستمع وهو يهز رأسه. لا أعرفهما، لكنني شعرت أنهما يعرفاننا بطريقة ما. كل جيل يظن أنه يخترع صداقته من جديد، بينما الصداقة قديمة كأول طريق مشاه رجلان معاً.

تمنيت أن يظل أحدهما للآخر مثل موسى.

تمنيت أن يعرفا، وهما يضحكان الآن، أن هذه اللحظة قد تعود إليهما بعد سنوات فتوجعهما بحلاوتها. تمنيت أن لا يؤجلا الامتنان.

عدت إلى الدفتر وكتبت:

إلى كل طالبٍ جلس يوماً في كافتيريا جامعية وهو لا يملك إلا ثمن الشاي، إلى كل ابن قرية حمل اسم أهله في قلبه ودخل المدينة خائفاً ومصمماً، إلى كل صديقٍ أعطى من القليل كثيراً، وإلى كل أمٍّ أرسلت دعاءها مع ولدها فكان ذلك الدعاء أدفأ من البطاطين... هذه الحكاية لكم.

شربت رشفة من الشاي. كان ثقيلاً بما يكفي ليجعلني أتذكر توحة. ضحكت حين تخيلت موسى يقول:

"كويس، الشنب يوافق".

ثم كتبت:

يا موسى،

ها نحن نصل إلى آخر الصفحة، لا آخر الحكاية. أردتُ أن أكتبك كما كنت: ضاحكاً، خائفاً، طيباً، ساخراً، عميقاً حين تريد، وخفيفاً حين يثقل العالم. أردتُ

أن أحفظ فيك الإنسان لا الصورة، والرفيق لا الأسطورة. فإن قصّرتُ، فالعذر أن بعض الناس أكبر من قدرة اللغة، وإن أصبتُ، فذلك لأنك كنت واضحاً بما يكفي ليهتدي إليك القلب.

لم تكن صديقاً عابراً يا دبال. كنتَ شاهداً على مرحلةٍ صنعتني. وها أنا أفي بما استطعت من الوعد.

هنا شعرت أن الخاتمة بدأت تجد صوتها. لم أعد أبحث عن عبارة كبيرة تغلق الرواية، بل عن صدق بسيط. فالحكاية التي بدأت بالفول والشاي والبرد لا تحتاج إلى نهاية متعالية. تحتاج إلى كوب شاي أخير، وإلى صديقٍ حاضر في الغياب.

نظرت إلى النيل. كان يمضي. لا ينتظر أحداً، ولا ينسى أحداً. هذه معادلة النيل الغريبة: يمضي ويحفظ. يأخذ الماء بعيداً، لكنه يترك المعنى في الضفاف.

قلت في نفسي إن حياتنا تشبه ذلك. نمضي، لكن بعضنا يبقى في ضفاف بعض. موسى مضى في طريقه، وأنا مضيت في طريقي، لكن شيئاً منه بقي على ضفتي، وشيئاً مني بقي على ضفته. هكذا تفعل الصداقة الحقيقية؛ لا تلغي المسافات، لكنها تجعلها أقل وحشة.

كتبت:

كبرنا يا موسى. كبرنا أكثر مما كنا نتوقع ونحن نجلس هنا نحسب ثمن الشاي. الحياة أخذتنا إلى طرق كثيرة، علمتنا أشياء، وكسرت فينا أشياء، ومنحتنا أشياء. لكنني كلما عدت إلى جوهري، وجدت جزءاً منه جالساً معك في جامعة الخرطوم.

وجدتني هناك، في ذلك الطالب الذي لم يكن يملك الكثير، لكنه كان يملك صديقاً. وهذا وحده كان ثروة.

ثم وضعت القلم قليلاً.

جاءتني صور متتابعة كأنها مشهد ختامي طويل: موسى يدخل أدروب، يطلب الفتة، يعلن أن الجوع مسألة وطنية. موسى في الداخلية، يزعم أن البرد لا يؤثر على أهل عراق. موسى عند توحة، يطلب الشاي تقيل لأن الشنب لا يشرب خفيفاً. موسى وهو يرى "الشتيلة" تمر، فيرتبك رغم كل هيبته. موسى بعد الامتحان، يسأل: "كدا خلاص؟" موسى عند النيل، يمد يده ويقول: "وعد".

وها أنا أردّ الوعد.

كتبت:

الوعد يا موسى لم يكن أن أبقيك في الماضي، بل أن أخرجك منه إلى اللغة.

فالماضي وحده قد يبهت، أما اللغة، إن صدقت، فهي بيتٌ آخر للذين نحبهم.

وهذا البيت لك. لك ولأدروب وتوحة والداخلية وشارع النيل وعجان وعراق وجامعة الخرطوم. بيتٌ من كلمات، لا يملك أبواباً مغلقة، يدخله كل من عرف معنى الصداقة، أو فقدها، أو اشتاق إليها.

كانت الشمس قد غابت تقريباً. الأضواء انعكست على الماء، والشارع بدأ يمتلئ بأصوات المساء. شعرت أن الوقت مناسب لإنهاء الفصل، لكنني لم أرد أن أكتب كلمة "النهاية" ببرود.

لأنها ليست نهاية.

إنها عودة.

كل من يقرأ هذه الرواية، سيعيد فتح الباب. سيجلس معنا في أدروب، سيشرب عند توحة، سيضحك من شنب موسى، وسيرتجف قليلاً في برد الداخلية، ثم سيخرج وهو يتذكر صديقاً ما في حياته. وحين يحدث ذلك، لن تكون الحكاية انتهت، بل بدأت في قلب آخر.

لذلك كتبت:

ليست النهاية أن نغلق الدفتر، بل أن نجد ما يستحق أن نحمله معنا بعد إغلاقه. وما أحمله من هذه الحكاية واضح: أن الإنسان لا ينجو وحده، وأن الصداقة الصادقة شتيلة ريد، إن نبتت في زمنٍ صعب، صارت شجرةً لا تكسرها السنين.

ثم أضفت:

في جامعة الخرطوم، تعلمنا أن الفقر لا يمنع الكرامة، وأن البرد لا يمنع الضحك، وأن الغربة لا تمنع الألفة، وأن الشاي قد يكون وطناً مؤقتاً، وأن صديقاً واحداً قد يكفي ليجعل العمر أقل قسوة.

أغلقت الدفتر.

بقيت جالساً قليلاً، أشرب ما تبقى من الشاي. كان قد برد، لكنني شربته حتى النهاية. ربما وفاءً لتوحة، وربما لأن موسى كان سيقول:

"الشاي ما بنرمي، دا تاريخ".

نهضت، ودفعت الحساب. هذه المرة لم يكن بالدين. ابتسمت للفكرة، وقلت في داخلي:

"شايف يا موسى؟ الزمن اتحسن شوية".

فرد صوته في الذاكرة:

"المهم القلب ما يصغر".

كانت هذه الجملة لتوحة، لكنها صارت لنا جميعاً.

مشيت مبتعداً عن النيل. لم ألتفت كثيراً، لأنني تعلمت أن بعض الوداع لا يحتاج إلى التفات. ما تحمله في داخلك لا يضيع بمجرد أن تغادر المكان. وفي الطريق، مررت بجوار شابين يضحكان. سمعت أحدهما يقول لصاحبه:

"يا زول، بكرة نمشي نشرب شاي".

ابتسمت.

الحكاية مستمرة.

ربما في جامعة أخرى، أو كافتيريا أخرى، أو نيل آخر. ربما بصديقٍ لا يشبه موسى في الشكل، لكنه يشبهه في الجوهر. وربما في قلب شابٍ يكتب الآن أول جملة من روايته دون أن يدري.

عندما وصلت إلى نهاية الشارع، توقفت لحظة، وقلت بصوت لا يسمعه غيري:

“شكراً يا جامعة الخرطوم”.

ثم قلت:

“شكراً يا موسى”.

ومضيت.

لكن موسى لم يبقَ خلفي.

كان يمشي معي، كما يفعل دائماً، في تلك المسافة الخفية بين الذاكرة والقلب.

الخاتمة

ليست شتيلة ريد في جامعة الخرطوم حكاية حبٍ عابر، ولا سيرة صديقٍ واحد، ولا نوستالجيا لطالبين جلسا يوماً على ضفاف النيل. إنها رواية عن المعاني الصغيرة التي تصنع الإنسان: صحن فولٍ في وقت الجوعِ، كوب شايٍ في وقت الضيق، بطانيةٍ في ليلة برد، وضحكةٍ في وجه الخوف.

إنها رواية عن الصداقة حين تصبح وطناً، وعن الجامعة حين تتحول من مكانٍ للدراسة إلى مدرسةٍ للروح، وعن أبناء القرى حين يدخلون المدينة وهم يحملون جذورهم في قلوبهم.

وفي قلب هذه الرواية يقف موسى أحمد محمد النور دبال، لا كبطلٍ أسطوري، بل كإنسانٍ حقيقي؛ صديقٍ يعرف كيف يحضر حين تضيق الدنيا، وكيف يجعل الفقر أقل قسوة، والبرد أقل وحشة، والخوف أقل ثقلاً.

لقد نبتت شتيلة الريد في جامعة الخرطوم، وسقتها الأيام بالشاي، والضحك، والدمع، والصبر، حتى صارت شجرةً في الذاكرة.

وما دام في القلب صديقٌ لا يُنسى، فإن الرواية لا تنتهي.

ما تبقّى من شتيلة الريد:

ليست كل الحكايات تنتهي حين نفترق،
ولا كل الوجوه تغادر حين يمر الزمن.
فهناك أناس يظلون معنا،
في ضحكةٍ تشبههم،
وفي شارعٍ مررنا به معهم،
وفي كوب شاي يعيد أصواتهم إلى القلب فجأة.

وما تبقّى من شتيلة الريد
لم يكن مجرد ذكرى جامعة،
بل حياة كاملة ما زالت تنبض داخلنا؛
بأدروب، وشارع النيل، وبرد الداخلية،
وبصديقٍ كان يشبه الوطن كلما ضاقت الأيام.

ربما تغيّرت الطرق،
وكبرت الأعمار،
وافترقت المدن والوجوه،
لكن الأشياء الصادقة لا تموت بسهولة.
تبقى مثل شجرةٍ زرعناها في القلب،
كلما هبّت رياح الحنين، أورقت من جديد.

وهكذا بقيت شتيلة الريد...

لا كقصةٍ مضت،

بل كأثرٍ جميل علّمنا

أن بعض الناس لا يغادرون العمر أبداً.



نبذة عن الكاتب
محمد بشير محمد
مصطفى "ود القبائل"
كاتب وصحفي ومؤلف
سوداني، من مواليد قرية
عجان الحلاوين بولاية
الجزيرة، السودان.

إضافة نص تكميلي فتخرّج في جامعة الخرطوم، كلية الآداب، قسم اللغة العربية والإعلام، وعمل في مجالات الصحافة والتحرير والإعداد الإعلامي منذ عام 2011.
له اهتمامات واسعة بالكتابة الأدبية والصحفية والتوثيق الإنساني والاجتماعي، ويكتب بأسلوب يمزج بين الذاكرة السودانية، والوجدان الريفي، والتأملات الإنسانية. صدرت له وكتب عدداً من الأعمال الأدبية والروايات والنصوص التأملية، من بينها: أم سرتين، نجمة الأسحار، وفتح البصيرة ما بين التلذذ والحيرة.
يقيم في دولة الإمارات العربية المتحدة منذ عام 2018، ويواصل مشروعه الأدبي والإعلامي في توثيق الحكايات الإنسانية، واستعادة الذاكرة السودانية بروح وجدانية ولغة قريبة من الناس.
"شتيلة ريد في جامعة الخرطوم" تأتي امتداداً لتجربته في كتابة السيرة الروائية، حيث يستعيد من خلالها سنوات الجامعة، والصداقة، والحنين، وذاكرة الأمكنة التي لا تغيب.
بقلم: محمد بشير محمد مصطفى "ود القبائل"صير